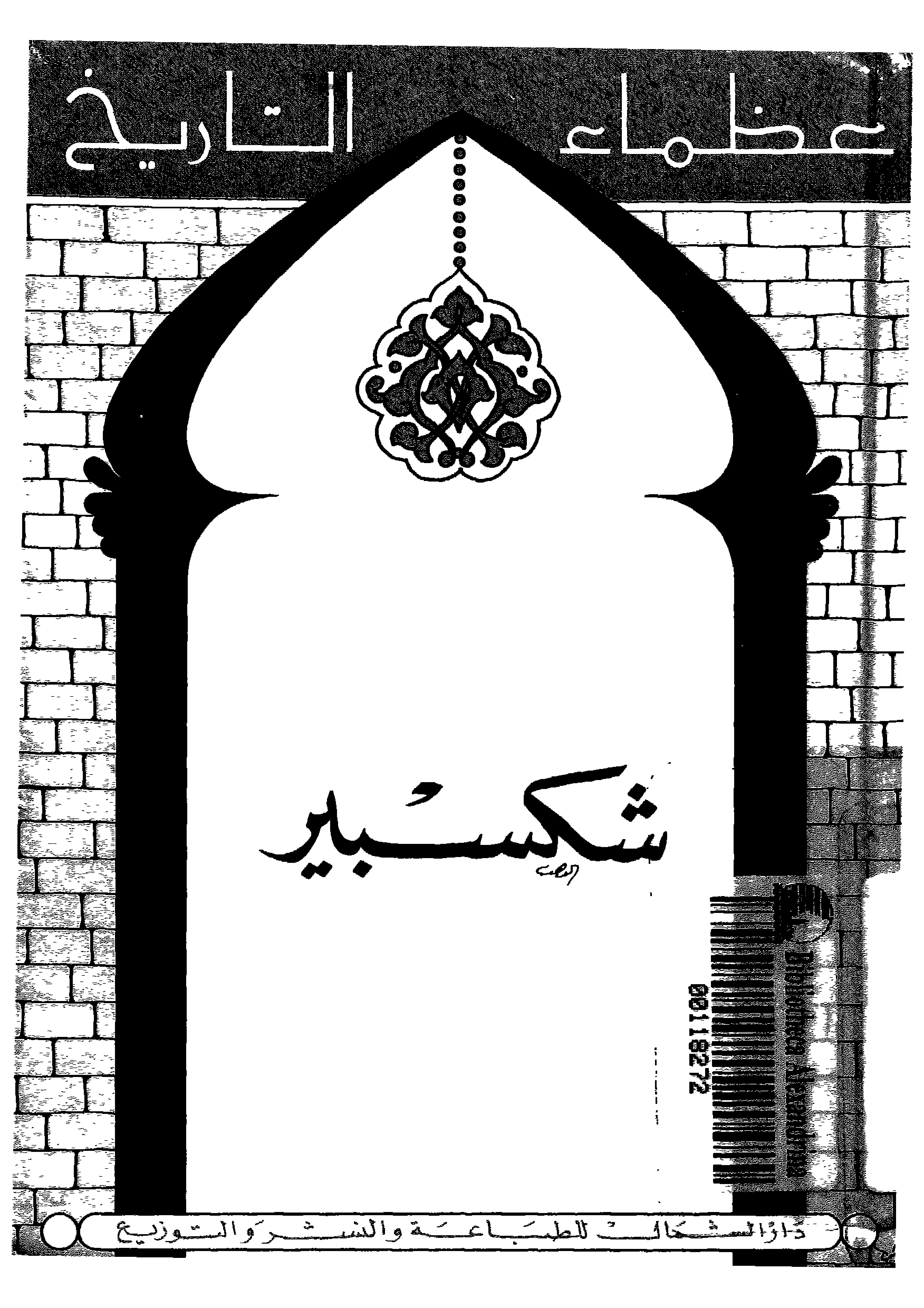

عظماء التاريخ
شكسبير
دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
Bibliotheca Alexandrina
0011827

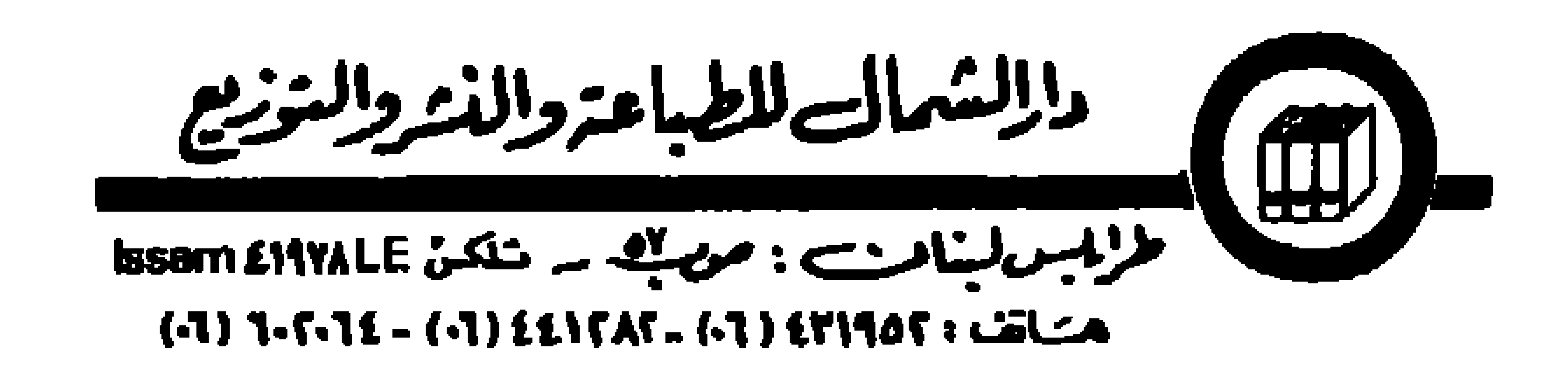
شکسپیر

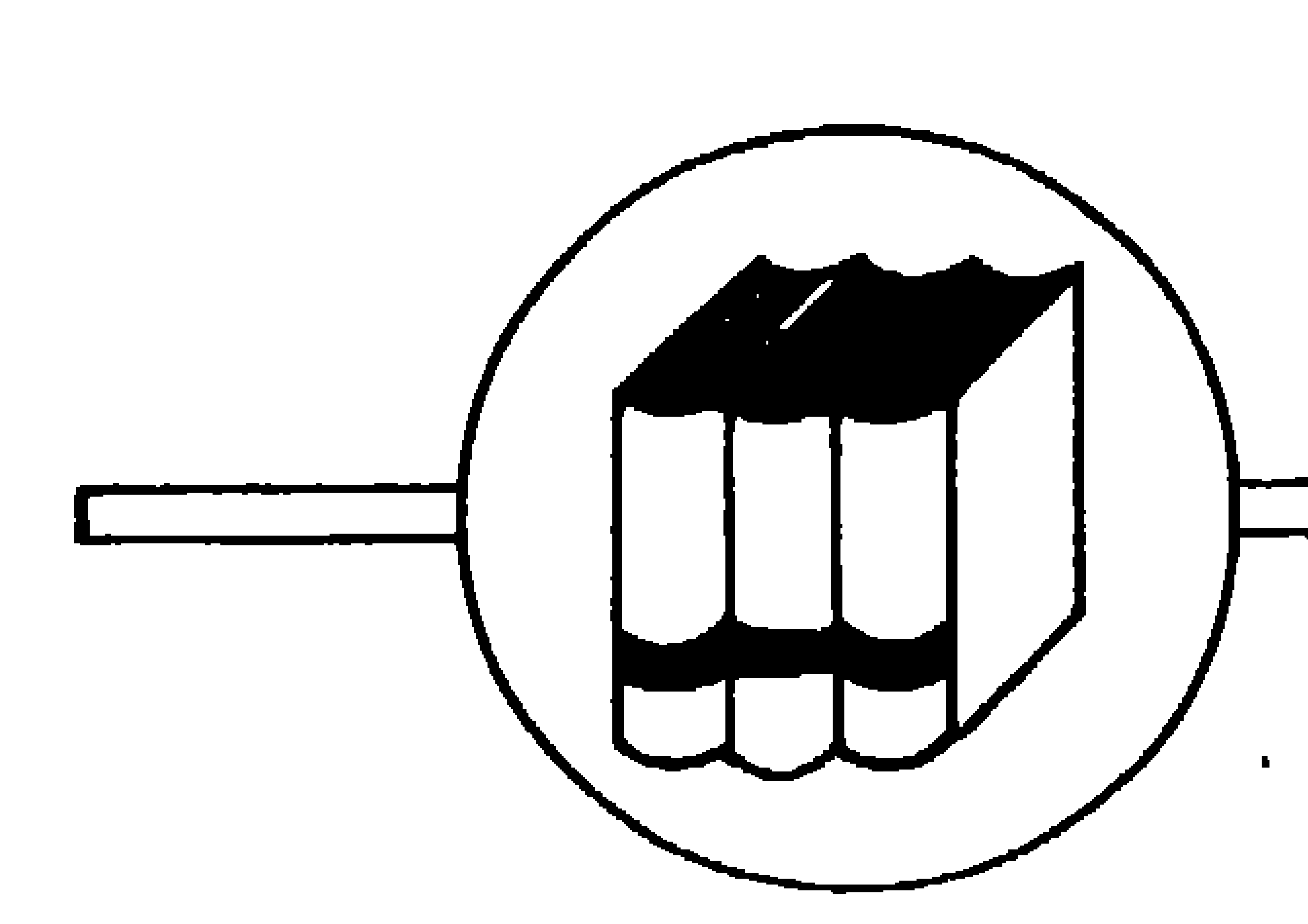
عظماء التاريخ



إعداد

سيف الدين الخطيب





دار الشمال

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان

ص.ب ٥٧ - هاتف: ٠٦/٤٣١٩٥٢ - ٠٦/٦٠٢٠٦٤

تلكس Issam ٤١٩٧٨ LE

الطبعة الأولى

مقدمة

شكسبير «كلمة» وُلدتْ بين بحر الأسماء، فولّدتْ كلماتٍ زخر بها بحر المعاني والأفكار . وكان لمولده إطلالة مشرقة على عالم الفكر والشعر والأدب ، أضاءتْ سراجَ عقول الألوف بل الملايين من بني عصره، والذين تبعوهم حتى يومنا هذا ..

وليم شكسبير نقطة اللّاربح واللّاخسارة في حساب أسرة جون.. خسارة العبء الاقتصادي، وربح الاستهلاك في السرور والمتعة النفسية . كان ربحاً كبيراً ، لهذا العالم الذي جاء ، في ما قدّم وأعطى من كنوز العلم والمعرفة ونبع الحياة الثرّ !

كان نبوغه الفائق وعبقريته الفذّة بمثابة شلّالات إنسانية وفكرية ترفد الحيـاة وتنعشها بكلّ أشكال الحبّ ومظاهر الجمال ! فهو لم يكن شاعراً وأديباً بقدر ما كان إنساناً وبشراً .. بل إنّ إنسانيته المتناهية في العطف والحبّ والرحمة هي الـتي

دفعتْ به إلى ارتقاء سلّم الأدب والشعر .. ولولا شعورُ البؤس والحرمان والألم الذي عضّ بنابه عائلة شكسبير وأغرقها في ظلام التفكير والبحث عن مخرج ، لكان لوليم شأنٌ أو وجهٌ آخر مع الحياة وغرسة الشعر والأدب ..

لقد وَلّد لدَيه هذا الشعور ، وهو لم يزلْ في مراحل عمره الأولى ، حماساً وإقبالاً نحو الجدّ والعمل ، فانطلق إلى هذا العالم وفيه انطلقتْ أفكاره تبني شاهقات العلم والأدب ، وراصعات المسرح والنقد.. فيشتهر ويتألّق . ويذيع صيته وتنتشر رواياته ومؤلفاته وأشعاره وتعبر كلَّ قارات الأرض ليعبَّ منها إنسانُ الظّمأ الفكري والحضاري !

ويذهب وليم شكسبير مع أهل الحياة الذين ذهبوا، وتظلّ روحه وأفكاره حيّةً خالدةً تُطِلُّ علينا مع كلّ رواية ومُؤَلّف وكتاب ترَكَ بعده ..

والآن قارئي العزيز تعالَ معي في رحلة الحديث عن حياة شاعر الانسانية والجمال « وليم شكسبير » ، وعن موجز لبعض

رواياته الـتي اخترتُها لك من بين مجموعة كبيرة من تراثـه الأدبي والشعري .

وقد راعيتُ الدقّة والموضوعيـة في بعض الجوانب الهامة من حياة هذا الإنسان العظيم ، وتركتُ لنفسي حرّيـة التصرّف في التحليل والتعليق لبعض ما لا يخرج عن هذا الاطار في مجال الـكلمة والوصف .. راجياً أن أكون قد وُفِّقْتُ في عملي هذا بما يرضي الذوق والأدب .

سيف الدين يونس الخطيب

مولد وليم شكسبير

شكسبير في المدرسة

شكسبير في العمل

مولـــده :

في وسط انكلترا تقريباً تقع بلدة قديمة على ضفاف نهر آفون تُسمّى بلدة « ستراتفورد ». إنها بلدةٌ ريفيّةٌ جميلة يقصدها آلاف الزائرين من زوايا العالم الأربع في كل عام ..

أمّا لماذا يقصِدها هذا العدد الكبير من النـــاس ؟! فهذا طبعاً لا يعود لكَونها منطقة ريفية تتّصف بجمال الطبيعة والمناظر الخلّابة .. بل لأنها المكانُ الذي شَهِد ميلاد أعظم شاعر في العالم ولكلّ زمان : « شكسبير » شاعر الإنسانية والحبّ والجمال.

ومع أنّ أعماله العظيمة والمجيدة في كتابة الروايات والشعر قد أنجزها في مدينة لنـدن العاصمة ، فإنّ الذي لا شكّ فيه بـأنّ كثيراً من الوحي والإلهام قد هبطَ عليه في هذه المنطقة الريفيـة الرائعـة .. ولا غروَ إذنْ في أن تُعتبر ستراتفورد هي بـــلدة شكسبير التي أطلقت شواهده الفنّية الجماليّة في الفكروالإبداع.

ففي يومٍ دافىءٍ مُشمس من أيام الربيع ، وبالتحديد في الثالث والعشرين من شهر نيسان عام ١٥٦٤ أطلّ وجه شكسبير على الحياة ورأى النور .

وُلد شكسبير لأبوَين لم يكونا من اليُسْر والغنى بالشيء الذي يُذكر ، ومع ذلك ، فقد كانت ظروفُ حياتهما مُرضِيَة ومُريحة .

لقد رضيَ والد الطفل بالواقع الذي يعيش فيه ، واكتفى بالدّخل الذي يدرّه عليه عمله في تجارة اللحوم والجلود والأغنام. ولكن هل آمن هذا القادمُ من الغيب بما آمن به والدُه من شعار الحياة في القناعة والرضى ، وخضع لمشيئة الواقع والقدر واستسلم ؟! هذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد ..

والآن ، ها هو بيت جون شكسبير يضجّ بالحركة والحياة في صبيحة هذا اليوم المشرق الجميل في ٢٣ نيسان .. وها هم رجال القرية يتوافدون إلى الدار، وبعدهم النساء ، لتقديم التهاني والتمنيات لمناسبة ميلاد الطفل الجديد لعائلة شكسبير ..

وما أكثرَ حديثَ النساء في مثل هذه المناسبات :

ــ إنه طفلٌ رائعٌ جميل .. إنه يُشبه والدته الجميلة .

ــ لا ، بل يُشبه أخته مرغريت التي ماتت منذ عامين .

وتُحرِّكُ هذه الكلمات مشاعرَ الحزن والأسى في نفس الوالدة ماري وتبكي .. نعم ، فهي منذ سنتين فقــدتْ ابنتها « مرغريت » .. إنها الآن وبفرْحة المولود تبكي الفقيدة الراحلة بدموع حرّى وقلب كسير .

ــ هوّني عليك يا ماري ، فقد عوّض الله عليك خسارتك في مرغريت بمولود ذكر تزقزق آيات السعد على محيّاه .. فلا تَهِني ولا تحزني ، قد يجعل الله لك في هذا المولود كلَّ ما تطمحين إليه في يومك وفي غدك ..

وتخرج النساء من عند ماري ويتابعن حديث الثرثرة :

ــ ما هو الاسم الذي اختاروه للمولود ؟

ــ يُقال بأنه وليم .

ـ ولِمَ هـذا الاسم الشّؤم ؟ فلقـد أعدم الرجل الذي كان يحمله في القرية شنقاً قبل أعوام .

ـ لا شك أنّ هذا الاسم سيحمل الشرّ لمن يحمله ..

ـ كيف .. كيف أخطأوا باختيار اسم وليم وأطلقوه على هذا المسكين ؟!

ـ إنه والده وهو يتوسّم به خيراً .

ـ سامحه الله على هذا الخطأ .. ومسكين حقـاً وليم هذا !

من هي أسرة شكسبير ؟

عُرف عن جون شكسبير بأنه ينحدر من عائلة متواضعة، كانت تعمل في خدمة السّير «روبرت آردن» في قرية «ويلكوت» القريبة من ستراتفورد .. وكان جون هذا هو أحد أفراد أسرته الذين يعملون لحساب السير «آردن» في زراعة وفلاحة الأرض .

ولم يكن جون شكسبير في بادىء حياته العملية راضياً عن هذا العمل الذي لا يوّفر له سوى دخل محدود ، شأنه في ذلك شأن أفراد العائلة الآخرين، بل طَمِح إلى عمل آخر يستطيع من خلاله أن يكسب أكثر ويدّخر بعض المال ، سيّما وأنه أُعجب بابنة السير «آردن» ويريدها زوجةً له في المستقبل .

ولكن كيف يحدث هذا ، وكيف يُرضي هوى قلبِه وشغفَ روحه بـ «ماري آردن» ابنة سيّده وهو على هذه الحال؟

لا بدّ أن يبحث عن جديد من الأعمال . وها نحن نراه يتسلّق ظهرَ الأمل ، وينطلق به ساعياً في تحقيق الرجاء . فيُتقن صُنعَ القفّازات ، ويجمع مبلغاً محترماً من المال . ويتقدّم بطلب يد ماري للزواج . . ويوافق السير « آردن » على هذا الطلب . ويتمّ الزواج من ابنة الأسرة الثريّة والعريقة في « وورِكشاير » . ويظفر بقلبه وبمن كانت سبباً في اندفاعه وطموحه . .

وهكذا تمضي سفينةُ جون شكسبير في سِفر الحياة مع العائلة الجديدة . . ويُرزق بثمانية أطفال ، يموت منهم اثنان : حنة ومرغريت ، ويكون وليم هو الثالث في عداد الأبناء .

أمّا عن شخصيته فتحدّثنا الكتب عن ظرفه ومرحه ، وكيف كان شريفاً نظيف الكف في تعامله مع الناس والذين يتعاملون معه في شؤون تجارته في البيع والشراء .

كان رقيقاً وعطوفاً ومحبّاً لأهل بلدته ستراتفورد . يقدّم المساعدة لكلّ من يحتاجها دون تعيير أو منّة . ومع ذلك فقد كانت أحواله الاقتصادية أشبه إلى الضّيق منها إلى اليُسر . . ومع

ذلك كان راضياً قنوعاً بما يسّر الله له من رزق ومعاش .

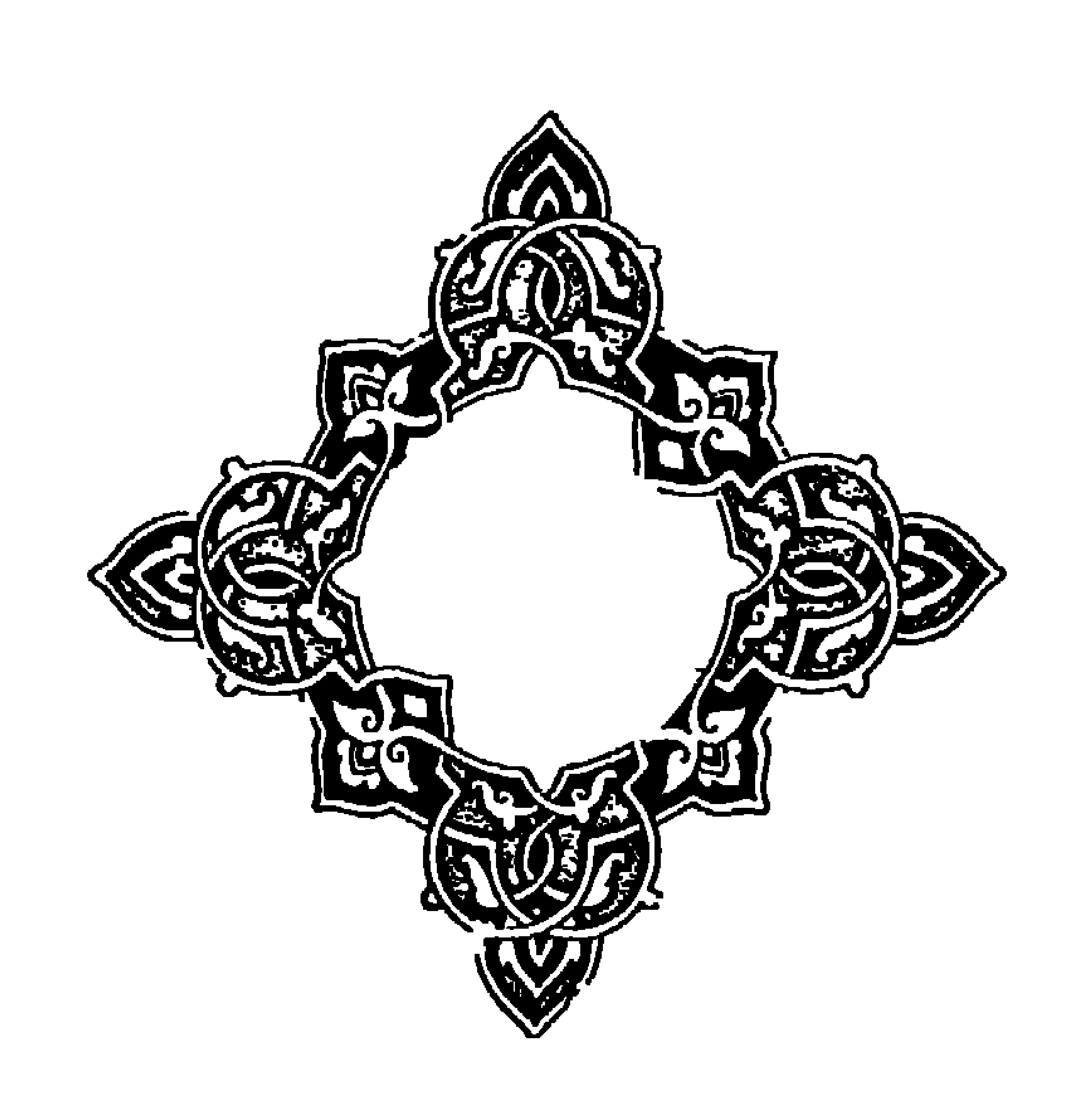
وظلّ على هذا الوضع حتى ما بعد ولادة ابنه وليم بعامَين ، حين انقشع الغمّ في سوء الأحوال ، وبسطتْ له السماء كفّها السخيّ المعطاء في الرزق والخيرات . فقـــد تحسّنتْ أحوالُه الاقتصادية عن طريق التجارة والأعمال ، وأصبح مختاراً لبلدتـه في عام ١٥٦٥ ثم رئيساً لبلديّتها عام ١٥٦٨ . وذلـك كله تقديراً ومكافأةً لما كان يبديه من اهتمام ورعاية نحو أبنـاء ستراتفورد في شؤونهم وحاجاتهم .

وفي عام ١٥٧٥ بدتْ عليه مظاهرُ الثراء والغنى ، وابتـاع من أمواله الفائضة منزلـين في ستراتفورد . وعاش مـع عائلته في بحبوحة من العيش حتى عام ١٥٧٧ ، حين بدأ يتراجع ، وتسـوء أحواله الاقتصادية مرة أخرى .

وكأنّ القدر أو السماء التي فتحتْ أبوابَها له على الخير وسعة الرزق كان عُمرها قصيراً مع جون وعائلته ، أو هي لحكمة أو اختبار أرادتْ أن تمتحنَ بـه هذا الانسان أغلقتْ سريعــاً

أبوابها في وجهه ليمضي على قتاد الشَّوك وشظف العيش .

ونحن نرى هنا بأنّ هذه الضائقة الشديدة التي ألمّتْ بجون وعائلته وجعلته يرهن عقاره الذي حصل عليـــه أيام الرضى ، كانت حافزاً قويّـــاً لدفع وليم شكسبير إلى الانطلاق في مجال العمل المبكّر حفاظاً على حياة العائلة وبقائها ..



شكسبير في المدرسة :

عندما كبر شكسبير وأصبح في وضع يؤهّله للعلم ، أرسله والده إلى « مدرسة ستراتفورد لتعليم أصول اللغة اللاتينية وقواعدها » . واستطاع وليم خلال مدّة قصيرة أن يتعلّم القراءة والكتابة ويُتقن حفظَ الأشعار وإلقاءها أمام معلّميه وأترابه في الصف وفي المناسبات ..

كان يبدو دائماً متّقد الذهن ، حاضر البديهة ، مبرّزاً في كلّ دروسه، حتى أنه حاز على إعجاب وتقدير معلّميه الذين كانوا يَضربون به المثل الصّالح لجدّه ونشاطه وأدبه .

ومع ذلك ، فقد كانت المدرسة في ذلك الوقت مكاناً غير سار أو مُريح للطلاب .. فقد ذهب بعض الأدباء الذين كتبوا عن حياة شكسبير، وكانوا أقرب إليه من غيرهم في معرفة بعض الخفايا والأمور ، ذهبوا في وصفهم لهذه المدرسة « بالسّجن

الممتاز » الذي كان يقضي فيه الطلاب معظم نهارهم دون الاستفادة من وقت مهدور ومُرهق .

كانت تبدأ الدروس في الساعة السادسة صباحاً يتخلّلها نصف ساعة استراحة من أجل تناول الفطور ، وتستمرُّ حتى الساعة الحادية عشرة والنصف . وتُستأنف الدروس في الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتتواصل حتى الساعة الخامسة والنصف بفترة نصف ساعة استراحة فقط ..

ويبدو أنّ هذا التوقيت من ساعات الدراسة الطويلة قد أزعجتْ شكسبير كما أزعجتْ غيرَه من زملائه الطلاب .. لذا نراه يتململ ويتضجّر في بعض الأحيان ، وينعكس هذا الملل والضّجر على بعض سلوكه وتصرّفاته في المدرسة.. حتى أنّ مدير المدرسة السيد « روش » قال يوماً وهو يلحظ هذا التصرّف من شكسبير ورفاقه : « إنني أعتقد بأنّ توفير العصا والاستغناء عنها سيُفسد الطفل » .

وهكذا نرى بأنّ شكسبير رغم تألقه ونبوغه ومحبّة

معلميه له في المدرسة ، لم يكن يُخفي استياءه وعدم رضاه من الوقت الطويل الذي كان يقضيه بين جدران الصف . ولكن هذا لم يحلْ دون متابعة الطريق في المدرسة من أجل إرضاء والده وتنفيذ رغبته في إيصاله إلى أعلى مراتب العلم والثقافة، وهو الذي رأى فيه علامةً بارزةً ومشجّعة لرفع رأس عائلة شكسبير عالياً في المستقبل ..

ويمضي في الاستزادة من حفظ أشعار «فرجيل» و«هوراس» وخطب « شيشرون » ، وهم من مشاهير الرومان ، ليقفَ غداً على عتبة الحياة الفكرية والثقافية يخاطِبها باللغة التي بها تُخاطَب من معين الادخار والمخزون . بل ليغرسَ في أرجاء حدائقها شكلاً جديداً من أزهار الشعر والقصص ، تتحدّثُ هي بلغته وتملأُ شذاها أهلَ الفكر في العالم .

شكسبير في العمل :

ويأتي دورُ الحصاد للعلم ، ولكن مبكّراً وقبل أوانه. فقد اشتدّتْ ضائقةُ والده المالية ، وأصبح يقضي كثيراً من الوقت وحيداً منطوياً على نفسه في إحدى غرف الدار يفكّر بمشاكله وهمومه التي طرأت عليه إثرَ تردّي أوضاعه الاقتصادية ..

وها هو وليم يقفُ في إحدى المرّات يَرقبُ والدَه والهمُّ يتآكله ويكاد يعصِف بوجوده وحياته .. وها هو يَقترِب منه ويخاطِبه بأدبٍ جمٍّ واحترام كبير : « سيدي ، ما بالك تبدو مهموماً منزعجَ الخاطر ؟! ألَحِقَتْ بنا هزيمةٌ أخرى من هزائم الحياة ، أم تراك خسرتَ تجارتك كلها ولم يبقَ لنا شيء ؟ »

ويصمت الوالد ، ويَحارُ في الجواب .. ولا يدري ماذا عساه أن يقول لولده الذي لم يشتدَّ عودُه بعد ، ولم يخضْ تجربة الحياة ويتعرّف على مسالكها المعوّجة الوعرة . وبعد برهة من

الصمت والتفكير يقول لولده وهو يتأمله بعطف وحُنُوّ :

ــ يا ولدي .. ليتك كبيرٌ ما فيه الكفاية لأتداولَ معك شؤوني وشؤون الأسرة .. إنك ما زلت يافعاً وصغيراً .. ولن أستطيع مناقشتك وأنت في هذه السن !

ويجيب الولد البار :

ــ ولكني يا سيدي كبيرٌ وقد بلغت الثالثة عشرة الآن ، وأستطيع أن أتفهّم كلَّ شيء ..

وتنفرجُ أساريرُ الوالد الحزين ، ويبدأُ بِسَرْدِ أسباب الهموم والآلام على مسامع ولده الناضج عقلاً :

ــ لقد شهدتْ البلاد في عهد الملكة « اليزابيت » فترة رخاء وازدهار .. وكان لنا حظٌّ وافر من هذه السنوات السّمان بحيث تأمّن لنا كلُّ أسباب الرفاهية والعيش الرغيد .. وعِشنا في بحبوحة من هذا العيش .. وأنت ترى كيف كنتُ أسعى دائماً إلى توفيرِ أسباب السعادة والهناء لكم .. كنتَ ترى كيف

كان البيتُ يمتلئ بكلّ لذيذ وطيّب ، وكيف كانت والدتك تلحُّ على كل واحد منكم بأن يتناول المزيد من الطعام والفاكهة .
أما اليوم فإنّ البلاد تشهد أياماً صعبةً وقاسية ، وتمر بظروف حالكة جعلتنا نتأثّر بها ، وقد حوّلتْ سنواتنا إلى سنوات عِجاف لا حول لنا فيها ولا قُوّة ..

« فبعد أن ازدهرتْ تجارتي وتوسّعتْ أعمالي وأصبتُ حظاً كبيراً من الخير والرضاء، أرى هذه التجارة تنحسر وتنهزم أمام الصعوبات التي تواجهها البلاد في هذا الظرف .. وأكاد أفقد كلّ أموالي التي جمعتها ووضعتها في شركة تجارية كنت أقصد منها مزيداً من الربح لو كان لي من يساعدني في إدارة شؤونها ..

« لقد ضاقت أحوالنا المالية كثيراً ، ولم يَعُدْ بإمكاني سوى توفير قليل من الطعام لكم .. وأخشى إن استمرّ هذا الوضع على هذه الحال أن يأتيَ يومٌ لا قدرةَ لي فيه على توفير الطعام لهذا البيت !!

« ليتك كنتَ أكبر يا وليم حتى أستطيعَ أن أعتمدَ عليك

في مساعدتي في العمل ! » .

وما أن ينتهيَ الوالدُ من سرد حكايتـه مع الزمن على ولده وليم حتى يستديرَ الولد البار بوجهه المفعم بالحزن والأسى محاولاً إخفاء دمعة تهمي من التأثّر والتفجُّع !

ويُلاحظ الوالدُ ما يفعل ولدَه ويقول :

ـ أبهذه الدمعةِ تريـد أنْ تساعدني يا وليم ؟! ألم تقـل أنك كبرْتَ وأنك بلغتَ مبلـغَ الرجال ، وتريد أن تقف إلى جانبي بقوّةِ الرجال وعزمهم .. كَفْكِفْ دموعَـك ولا تعدْ إلى ذلك إنْ شئتَ مساعدتي .. فما استقرّتْ الحياةُ على حال ولا دامتْ لأحد .. فهي دائمةُ التقلّب والتغيّر .. وما تعطيـك إياه اليوم تسلبُه غـداً .. هذا هو طَبعُها .. طَبـعٌ خؤونٌ غدّار .. إمسحْ دموعك يا ولدي .. فلا الأموال الـتي ضاعتْ .. ولا الحياةُ نفسها تستأهل منك أو منّا هذا الدمع !..

ويتنهّد وليم ويقول :

ـــ أمرُكَ يا والدي .. لكن هل لي أن أطلبَ منك طلباً أرجوك أن لا تردّه .. أنت تعلم يا والدي أني طالبٌ ناجح في المدرسة .. ولكن .

ـــ ماذا عساك أن تقول .. أتريد ترك المدرسة ؟!

ـــ نعم يا أبي .. أُريد تركها لأني أُريد أن أعملَ معك .. وسأعود إليها حالما تسمح الظروف بذلك .. أما الآن فأرجوك أن توافق على طلبي هذا ، سيّما وأنت تعلم أني تعلّمتُ أفضل من غيري بكثير .

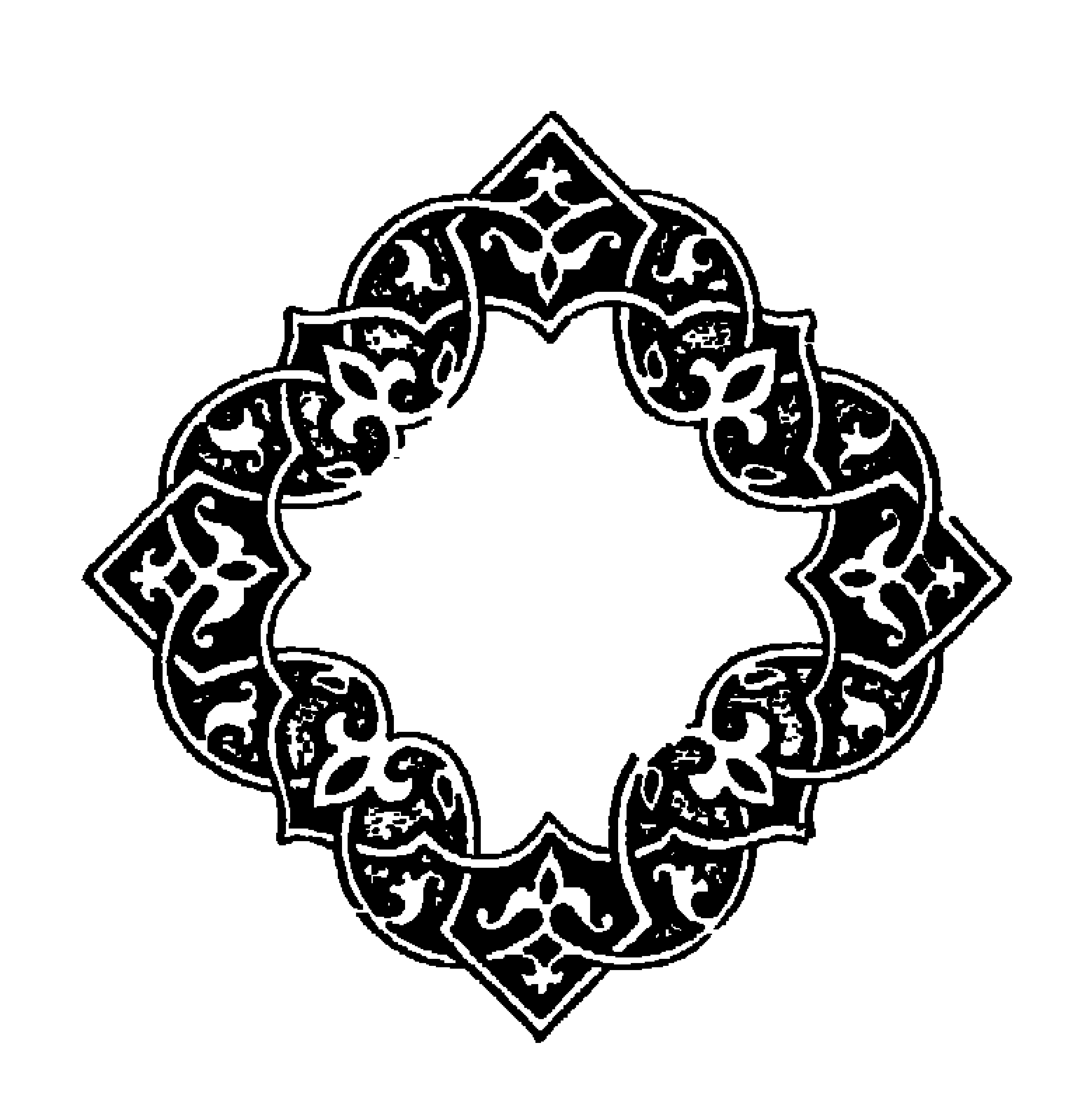
ويغلُب التأثّر على جون ، وتفيض عيناه بالدّمع .. دمع الحزن والفرح في آن واحد .. فقد أحزَنه أن يتركَ ولدَه المدرسة وهو الناجح المتفوّق .. وأسعده أن يرى ابنَه وهو يكشف عن شهامة ورجولة مبكّرة ..

ويجيب الوالد وقد اقتنع بفكرة الولد :

ـــ إن كنتَ ترغب في هذا وترضى عنه .. فلك ما شئت

يا ولدي ..

ويتصافح الرجلان بعد أن اتفقا على العمل معاً يداً بيـــد وقلباً بقلب .. فبعد اليـــوم سيعمل وليم مع والده في التجارة والصناعة ، وسيرعى الأغنام في الحقول القريبة من القرية ..



زواج شكسبير

إشتداد الأزمة الإقتصادية

الهجرة إلى لندن للعمل

النجاح العظيم

زواج شكسبير:

وهكذا تركَ وليم شكسبير المدرسة وهو في عامه الثالث عشر ، وتفرّغ لإدارة أعمال والده في النهار . وكان حين يعود إلى البيت في المساء يحاول بمجهوده الخاص أن يصلَ ما انقطع من حياة الدراسة في المدرسة .. فيكتبُ بعضَ الأشعار .. ويقرأُ بعضَ الكتب والحكايات..ويستعيدُ ما حفظه في المدرسة من أشعارَ وقصائد .

وفي الحقيقة فإنّ أحداً ما لا يعرف تماماً كيف قضى وليم شكسبير السنوات الخمس التي أعقبتْ تركه للمدرسة ! ولكن ما نستطيع أن نتخيّله هنا ونُجْمِعَ عليه هو أنــــه صرف هذه السنوات في العمل إلى جانب والده ، وفي الدراسة الخاصة التي مكّنته من زيادة حصيلة العلم والمعرفة لديه . وعندما بلغ وليم الثامنة عشرة من عمره تفتّح قلبُه للحبّ ووقع في الغرام .. فقد

عاد في أحد الأيام إلى البيت وهو مُطرق الرأس ، كاسف البال، حزيناً .. تبدو عليه حالة من القلـق والشّحوب والاضطراب .

ويرى الوالد ما يعانيه وليم ، ويبادره في السؤال :

ــ ما بك يا ولدي ؟! هل ألمَّ بك خطب ؟ هــــل أصابك مكروه ؟ قُلْ لي ولا تُخفي عليّ شيئاً ، فأنا أقرب الناس إليك.

ويجيب وليم بصوت متهدّج :

ــ لا شيء يا والدي .. لا شيء .. مجرّد تعب وإرهاق .

ولـكنّ الوالد لم يقتنع بهذا الجواب ، فيسأله مرّة ثانية :

ــ ولكني أراك حزيناً مبتئساً .. ولهذا سبب ، أرجوك الإفصاح عنه ، علّني أساعدك وأُخفّف عنك ..

ــ قلتُ لـك يا أبي لا شيء .. لا شيء .. وأرجوك أن تدعني أذهبُ إلى النوم ..

ويمضي وليم إلى غرفة نومه بخطَوات متثاقـلة وعيونُ والده

تلاحقه وفكره يعمل : « ما الذي حدث ؟ ماذا يمكن أن يكون قد جرى مع وليم حتى يبدو على هذا النحو من الحزن والأسى ؟؟ هل حلّ بنا مكروه وخسِرنا كلّ تجارتنا ؟ هل مات الغنم .. وأُتلِفَت الزراعة .. واحترق المعمل ؟؟ »

وسارع الوالدُ إلى زوجته يخبرها بما رأى من وليم علّها تعرف منه السبب ، أو عندها الخبر اليقين ..

وتردُّ ماري على زوجها قائلة :

ـــ ألمْ يخبرك السبب ؟ فكلُّ اعتقادي أنه فعل بعد أن طالبتُه أنا بذلك !

ـــ أهوَ مريض ويخفي عني هذا المرض ؟!

ـــ لا .. بلْ إنه عاشق ومتيّم ويريدُ الزواج .

وتجحظُ عينا جون ويقول :

ـــ الزواج .. يتزوّج .. كيف .. وممّنْ ؟!

ـــ إنه مُغرم بفتاة من عائلة نبيلة ومحترمة .. ويأمل بأن يفوز بها زوجة له !..

ـــ ولكنه صغير .. صغير يا ماري .. فولسيم لم يتجاوز الثامنة عشرة !

ـــ هذا غير مُهِم .. فهو راجح العقل ومتّزن .. وأنا أكفل له النجاح في هذا الزواج .

ـــ ولكنْ لَمْ تقولي لي من هي ؟

ـــ إنها « آن هاثواي » التي كانت دائماً موضعَ إعجابك وتقديرك ..

ـــ ولكنها تكبره بثماني سنوات، إنها في السادسة والعشرين.

ـــ ولسيم لا يناسبه إلا فتاة في مثل هذه السنّ ، فهو أكبر من عمره بكثير .. أنت تعرف هذا جيّداً ..

ـــ حسناً .. ولكن كيف سنتدبّر أمرنا .. ألا تَرَيْنَ ما نحن عليه من سوء الأحوال والمعيشة ..

ـــ لا بأس .. إنّ حلولَها علينا لن يزيدَنا ضَيراً أو رَهقاً .. فالبيت الذي يُطعِم عشرة أشخاص لـــن يتأثّر بإطعام شخص آخر .. فكلُّ همّنـا الآن أن نُزيحَ كابوسَ اليأس عـن صدر وليم .. أرجوك .. أرجوك يا جون أن توافق ..

ووافق جون .. وأخبر الوالدان ولـيم موافقتهما على هذا الزواج .. وملأَ الفرحُ والسرور قلبَ وليم ، وعادتْ إليـــه بسمةُ الحياة المشرقة تُطلُّ من بين عينيه.. وأسرع في اليوم التالي يزفُّ الخبرَ إلى « آن هاثواي » .. ثم يتبعه الوالدان إلى بيت أهل الحبيبة .. ويتحدّد موعد الزفاف .. ويتم الزواج في الثامن والعشرين من نوفمبر ١٥٨٢ .

إشتداد الأزمة الإقتصادية :

وتَدخُلُ « آن هاثواي » حياة شكسبير ، وتُدخِلُ معها البهجةَ والسرور إلى قلبه وقلب كلّ فردٍ من أفراد العائلة التي أصبحت عضواً فيها . ورغم أنّ « آن » حاولتْ بكلّ قدراتها أن توفّر السعادة لزوجها وتُشيعَ الدفء والحنان في البيت ، فقد كانت هي نفسها غير سعيدة بهذا الزواج .. فقد كان وليم مشغولاً عنها طيلة الوقت .. فهو يُدير أعمال والده في النهار .. ويقرأ ويطالع في الليل .. وقليلاً ما كانت تنفرد به انفرادَ الزوجة بزوجها .. وكما وصف أحدُ الكتّاب الانكليز الذين كتبوا عن حياة شكسبير الخاصة والعامة ، فإنّ هذا الزواج لم يكن ناجحاً جداً !

وتتحامل « آن » على جراح قلبها ووحدتِها ، وتقفُ إلى جانب زوجها ، شأنها في ذلك شأن الزوجة المثالية التي تتناسى

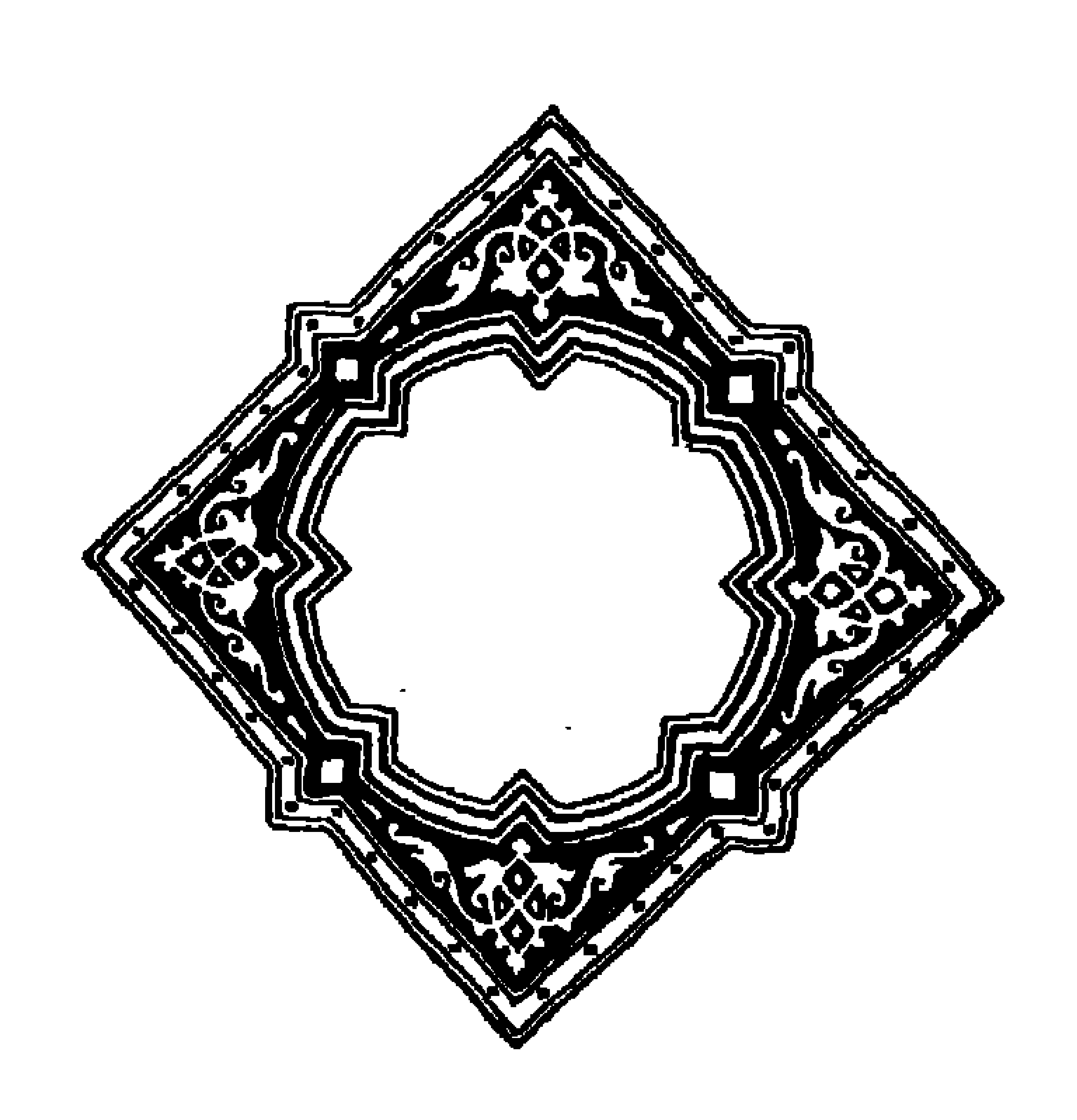
نفسها أمام حبِّ زوجها .. فهي لا تشكو .. ولا تتذمّر ! بل تعمدُ إلى إشغال نفسها بتنظيف البيت وترتيبه ، وتهيئة الجو المناسب واللطيف لزوجها في البيت كيْ يدرسَ بهدوء واطمئنان ويوسِّعَ دائرةَ ثقافته وعلمه ليحقّق طموحه وأمله في الحياة .. أوَليسَ هذا ما هو يبتغيه أيضاً ؟!. فإنْ هو وصل ، فهي واصلة معه حتماً .. ولكيْ تساعده وتتسلّق معه قمّةَ الأمل والنجاح ، نراها تلجأ إلى الكتب الأدبية والثقافية ، تعبُّ منها وتنهل ، لا لِتُجاريه فيما هو عليه من نبوغ وذكاء فطري ، بل لتفهمه أكثر وتقترب منه أكثر ..

وتكون ثمرةُ الحبِّ الأولى من زواجهما طفلةً رائعة الحسن والجمال سمّياها « سوسن » . وبعدها بسنتين يطلُّ عليهما توأمان ذكر وأنثى « هامنت » و « جوديث » ، ويضيقُ البيتُ بالزوار الجدد .. وتعتلُّ أوضاع العائلة الاقتصادية أكثر فأكثر وتقترب من شفير الهاوية !

ماذا يفعل وليم إزاء هذه المحنة ؟! بل ماذا يفعل والده جون

وهو الذي فقد عمله في هـذا العام إلى جانب خسائره المتوالية في التجارة ؟!

ما هو الحل ؟ وكيف تُنقَذُ العائلةُ المنهارة ؟ في ستراتفورد لا حلّ ، ولا بصيصَ أمل يُرشِدُ إليه !!



هجرة شكسبير إلى لندن :

تعبَ الجميع في التفكير والوصول إلى حلّ ، باستثناء وليم الذي أغرق نفسه في بحرٍ من الأفكار باحثاً مفتّشاً عن حلّ .. ويجدُ وليم هذا الحل .. ولكن .. أين ؟! وبالطبع كما ذكرنا فلمْ يكن هذا الحل موجوداً أو ممكناً في قريته ستراتفورد ..

إذن ، فقد صمّم وليم على الهجرة إلى مكان آخر يجد فيه العملَ والحل .. وأيُّ مكانٍ أنسبُ له من العاصمة لندن التي كانت في ذلك الوقت مقصداً لكلّ أمثاله من الشبان الطموحين ، وفيها الماء الذي يَروي ظمأ العطشى مِمّن نكبهم الدهر بالمصائب والويلات !..

ها هو قد اهتدى إلى الحلّ المنشود . ولكن .. بقيَتْ عليه ورطةٌ أخرى يجب حلّها قبل أن يقصدَ بابَ الحلّ الكبير في السفر !..

كيف سيتركُ زوجتَه وأولاده .. ولمنْ يَكِلُ أمرهم في تدبُّر شؤون العيش والحياة؟ أهو الوالد الذي أثقل الدهر ظهرَه الضعيف بأعباءٍ كثيرة؟ وهل ترضى «آن» عن فكرة سفره وتركِها للحاجة والوحدة أكثر؟

ولكنَّ الحالةَ التي تتخبّط العائلةُ فيها، والخوفَ من المصير الأسود المجهول الذي يتربّص بهم جميعاً ولا سيّما الأطفال جعله يقرِّر ما عَزم عليه، ويُفاتح زوجته بالموضوع مبيّناً لها مساوىء البقاء في ستراتفورد، وأمل الفرج من السفر إلى لندن. وتقتنعُ الزوجة المثالية بأقوال الزوج، وتشدُّ على يديه بألمٍ وفرح: ألمِ بُعادِه وفِراقه .. وفرحِ الأمل الذي ينتظرهم في لندن لانتشالهم من وهدة البؤس والشقاء!

ويُخبر وليم والدَه بما عزم عليه، طالباً منه الإذنَ .. ويتردّد الوالد في بادىء الأمر، ولكنه لم يلبث أن يوافقَ أمام إصرار ولده في السفر ..

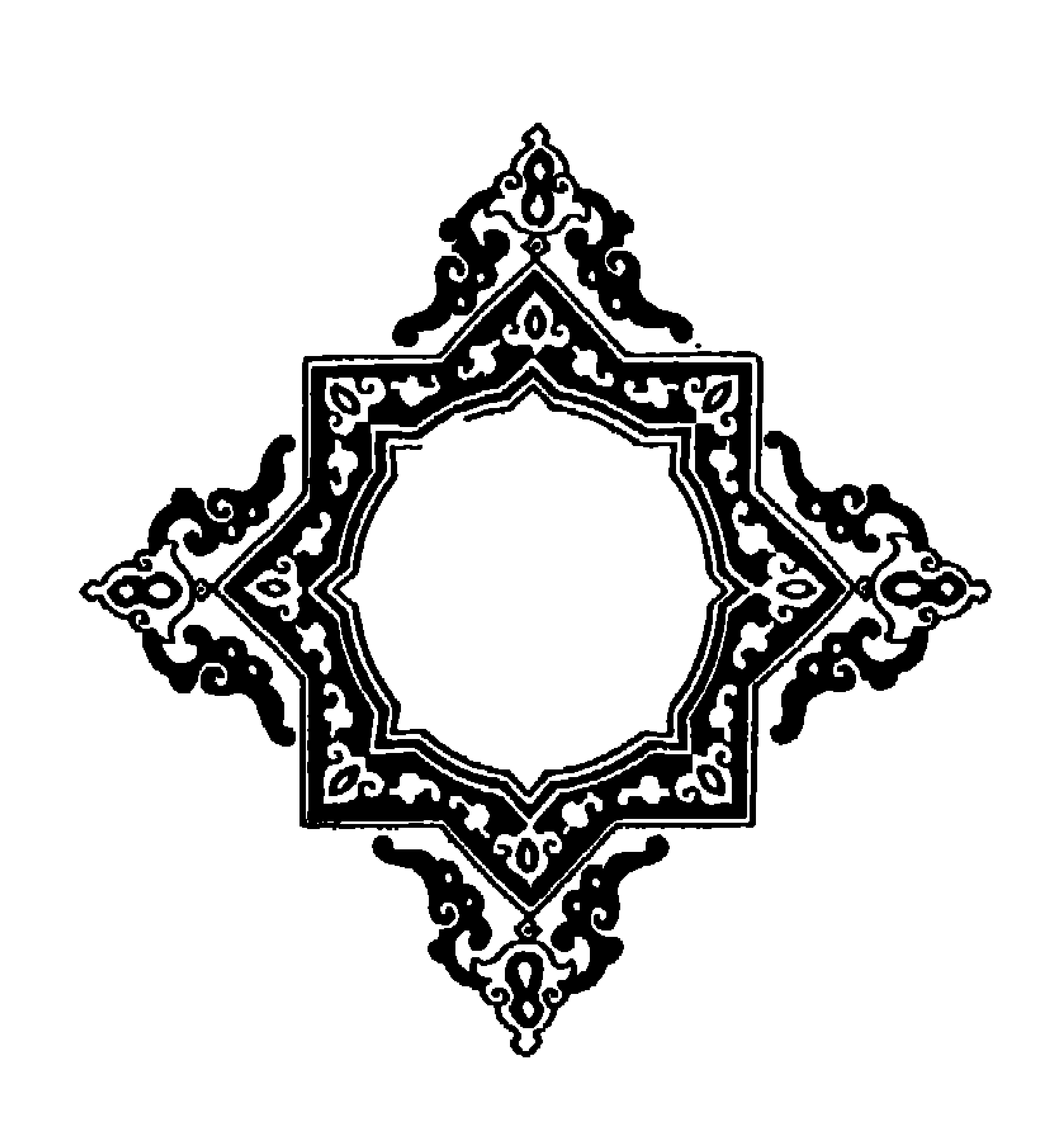
ويسافر وليم إلى لندن وسط دموع الزوجة والأولاد وبقيّة

أفراد العائلة .. ما أصعبَ الحياة وما أقساها حين تُفرّق بين الأحبّة ، وتكسر قلوبَهم وتكويها بلواعج الفرقة والبعاد .. بالأمس كان وليم بين أمه وأبيه وزوجته وبنيه ، واليوم ينفصِل عنهم ويهاجِر من أجل لقمة العيش والبقاء ! تَبّاً له من دهر .. وتَبّاً لها من حياة !

ورغم ما يُذكر في بعض الكتب عن أن سفر وليم إلى لندن كان سببه مشكلة الاعتداء على غزلان السير « توماس لوسي » في منطقة « تشارلكوت » التي تبعد ثلاثة أميال عن ستراتفورد ، من أجل حياة عائلته ، فإنّ هذا الزعم يحفزنا إلى القول بأنّ السبب الرئيسي لسفر وليم كان الضائقة الشديدة التي ألمّتْ به وبعائلته .. ألم يعتدِ على غزلان السير « لوسي » من أجل أن يعيش ؟ ولو كان في حال غير الحال الذي هو فيه أكان يُقدِم على فعل ذلك ؟!

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الوضع السائد في ذلك الوقت كان اجتذاب لندن للشبّان الطموحين الباحثين عن المستقبل

والثروة . ولندن كانت المكان الذي يبحث فيه شكسبير عـــن الأمجـاد والطموح .. وهي المكان الذي كان يبحثُ عـن أمثال شكسبير .. وهـا هو شكسبير يَفِدُ إليها وهو في الحاديـــة والعشرين من العمر ليحقّق أمله فيها ، ولتحقّق أملها فيه . ويجدُ الزارع تربتَه الخصبة ، وتجدُ الأرض سمادَها ونباتها الصالح ..



النجاح العظيم :

ويبدأ المشوار .. ويبدأ شكسبير حياته الجديدة في بلاد الغربة بالعمل كممثّل صغير مع إحدى الفرق المسرحية .. وينجح بما فُطرَ عليه من ذكاء وفطنة، وبما كان يتمتّع به من براعة وحسن أداء في التمثيل .. ويُعهَدُ إليه بإجراء تغييرات وتعديلات على بعض الروايات وجعلها صالحةً أكثر للاخراج المسرحي . وبالطبع فلمْ يكن في تلك الأيام ممثّلات فتيات، بل كان الأولاد هم الذين يقومون بدور الفتيات في أيّة تمثيلية .. وهذا سببٌ من الأسباب التي جعلت عديداً من النساء يأخذن أدوار الرجال في روايات شكسبير ، مثل « روزالند » و « بورشيا » ..

ومع أنه لا يُعرفُ شيء تماماً عن السنوات الثمانية الأولى التي قضاها شكسبير في لندن ، فإنّ كثيراً من الكتّاب أشاروا في كتاباتهم عن هذه الفترة بأنها لم تكن كلها في لندن ، بل قضى

قسماً منها في بلاد أخرى مثل هولندا وبلجيكا ، ويؤكدون هذا الاعتقاد بما أظهره شكسبير في رواياته من العادات والشخصيات الأجنبية ..

وعلى أيّة حال ، فإنّ السفر إلى خارج لندن قد أفاده في مزج كثيرٍ من طباع العالم الذي زاره في رواياته التي كتبها وقدّمها في لندن . وهذه ثقافة مهمة لصاحب العقل المتيقّظ النشيط ..

كان في لندن مسرحان يقعان خارج العاصمة .. إذ لم يكن القانون البريطاني في ذلك الوقت يسمح بإقامة المسارح داخل لندن . وكان على السادة الذين يودّون مشاهدة المسرحيات على خشبة أحد هذين المسرحين ، أن يركبوا على ظهور خيولهم ليصلوا إلى هناك .. ويقول بعض الناس أنّ شكسبير كان يقوم بالحفاظ على هذه الخيول ، ويُمسكها حتى انتهاء المسرحية مقابل أجر معلوم. حدث هذا كله قبل أن يحصلَ على العمل في المسارح ويصبح ممثّلاً فيما بعد .

وكما قلنا في السابق فإنّ شكسبير قد حقّق نجاحاً منقطع

النظير في عمله كممثّل وكاتب وروائي .. وذاع صيتُـه ، وملأتْ شهرتُه الآفـاق ، وحصل على عديد من الجوائز والمكافآت التشجيعية والتقديرية ، ولا سيّما من الملكة « اليزابيت » الـتي كانت مُعجبةً جداً بأشعاره .. وأصبح له العديد من الأصدقاء النُّبلاء في البلاط الملكي، ونال حظوةً في القصر. وكثيراً ما كانت الملكة « اليزابيت » تستدعيه إلى البـلاط لتستمعَ إلى أشعاره ، وتشاهدَ رواياته التمثيلية . وكانت تُغدِقُ عليه الهدايا وتَمنحُه الأوسمة الاستحقاقية .

وفي الواقع فقد أصاب شكسبير من النجاح ما لم يُصِبْه أحدٌ في عصره. فقد تُوِّج ملكاً لعرش الشعر والرواية والأدب. ولو كان سليلاً لإحدى أعرق العائلات ، لما نال حظوةً وتكريماً لدى عليّة القوم في بريطانيا وهولندا والدانمارك ، مثلما نـال شكسبير ابن العائلة الفقيرة المتواضعة التي جاءها بالشهرة واللمعان بفعل جدّه ونشاطه .. وسهره .. ومعاناته ..

ومن المعاناة والألم يُولد الشعر ، وتتفتّح بناتُ الأفكار ..

ويُصبحُ المستحيل جائزاً وممكناً! فحين بلغ شكسبير من العمر سبعاً وعشرين عاماً ، كتب أولى رواياته: « فَقْدُ حُبٍّ العمل ».

وفي خلال العشرين عاماً التي تَلَتْ ، كتبَ شكسبير سبعاً وثلاثين روايةً ، وضع فيها كلَّ ما في نفســه من ينابيع الشعر والأدب والفلسفة !

واستطاع من خلال عمله هـذا في التأليف والتمثيل أن يكسبَ أموالاً كثيرة جعلته في مصاف أغنى الأغنياء ، إلى جانب شهرته الواسعة ، وحبّ الناس واحترامهم .

وتجدرُ الإشارة هنـا إلى أنّ هذه الشـهرة ، وهذه الشعبية الكبيرة ، لم تترك مكانـاً للتكبّر والعنجهية في نفس شكسبير . والمال الكثير الذي حصل عليه لم يكن له تأثير الغنى على نفسيّته المتواضعة الأليفة ..

وهكذا نرى أنّ الصّيت الذائع ، والأموال بكثرتها ، لم تدمّر نفسَ شكسبير : شكسبير الإنسان، مثلما تدمّرُ نفوسَ بعض الناس الذين يصيبون من الحياة أقلَّ مما أصاب شكسبير .

العودة إلى ستراتفورد
وفاة شكسبير

العودة إلى ستراتفورد :

ولمْ تُنسِه الشهرةُ العظيمةُ أهلَه وبيتَه ، فقد كان يعاوده الحنين إليهما بين الفينة والأخرى ، حتى اضطرمَ به نار الشوق الملتهب، فحرّك فؤادَه ومشاعره العاطفية الإنسانية صَوْبَ وطنه وعائلته ، فقرّر العودة ، وعزم على إنهاء كلّ أعماله في لندن ليستقرّ نهائياً في ستراتفورد : القرية التي أبصر فيها النور ، وتدرَّج أوَّلَ ما تدرَّج !

ورغم أنّ شكسبير كان يزور من وقت لآخر قريته ويتفقّد أهله وأصحابه ، ويروي لهم رواياته ، ويُصغي بانتباه شديد إلى كلّ كلمةٍ وتعليق ، ويُراقبُ التأثّرات والانفعالات التي تَظهر على الوجوه ، ويسجِّلُ في ذاكرته ما يرى ويسمع حتى يتدارك بعضَ المواضع والأحداث في رواياته المقبلة حسب ما تروق للناس . والناس هم خير مختبر تُجرى فيه وعليه التجارب والاختبارات .

رغم أنه كان يفعل ذلك واصلاً حبلَ الودّ بينه وبين عائلته وأصدقائه ، ويقدّم لهم كلّ ما يحتاجونه من عطاء ، فقد عقدَ العزمَ في هذه المرّة أن يكون بقاؤه هناك بقاء الأبد بين الأهل والأصحاب . لقد تعب من مواصلة العمل في الليـــل والنهار ، غريباً ، بعيداً عن أطفاله وبيتـــه .. وها هو قد حقّق ما كانت نفسُه تصبو وتتطلّع إليه من أحلام وأُمنيات ، وآن له أن يعود ويستريح .. يعود إلى البيت الكبير الذي اشتراه في عام ١٥٩٧ في قريته ستراتفورد ، ويستريح إلى رؤية زوجته وأطفاله وأُمّه وأبيه وبقية أفراد العائلة والأصدقاء .

في عام ١٦١٠ ودّع شكسبير زملاءه وأصحابه وكلّ معارفه في لندن وعاد إلى ستراتفورد ليُقيم فيها وإلى الأبد .. ووداعاً يا لندن.. وداعَ الاعتراف بالجميل للصّدر الحنون الذي أغدقَ عليه الخيرَ واحتضنه .. ووداعاً يا رفاق العهد الطويل في الكدّ والجهاد وسهر الليـــالي .. ووداعاً يا مسارح الشهرة والأضواء .. وداعاً لكلّ إنسان .. لكلّ حجر .. لكلّ ذرّة

من تراب ضمَّ وحَنا !.. فَلِأُسرتي عليَّ حقٌّ !

واستقبله الأهل بالدموع والقبلات . غير أنه افتقد أحر القبلات في هذا الاستقبال ، قبلاتِ أُمِّه الحنون ! فلقد ماتتْ ماري قبل أن يصلَ إليها العائد المنتصر ! ما أقسى الدهر وما أعتاه .. فهو كم يعطينا من ثمين ويأخذ في غفلةٍ عنّا ما هو أثمن !! أوَليست الأُمُّ هي أثمن ما في الوجود ؟! أوَليست الأُم هي السعادة ، بل هي الحياة ؟! شكسبير الذي صوّر الحزن في رواياته بأروع ما تكون عليه صورُ الأحزان الحقيقية لدى الإنسان ، عاجزٌ الآن عن وصف حزنه بوفاة أُمِّه .. أُمُّه التي انضمّتْ إلى قافلة ابنتيها وحفيدها « هامنت » الذي مات وهو في الحادية عشرة من العمر وكان أبوه في لندن . شكسبير يبكي الآن ولده في أُمِّه.. ويبكي أُمَّه في ولده الراحل الذي قُصِفَ في ريعان الصِّبا والشباب .

ليتَ القدر لا يتدخّل دائماً فيسلب من الإنسان فرَحه وهناءه وهو في أسعد اللحظات ! ولكنّ القدرَ هو القدرُ

لا يتغيّر ولا يتبدّل في أيّ زمن من الأزمان ! والموت حق وسلطان على والدة شكسبير كما على ابنه من قبل .

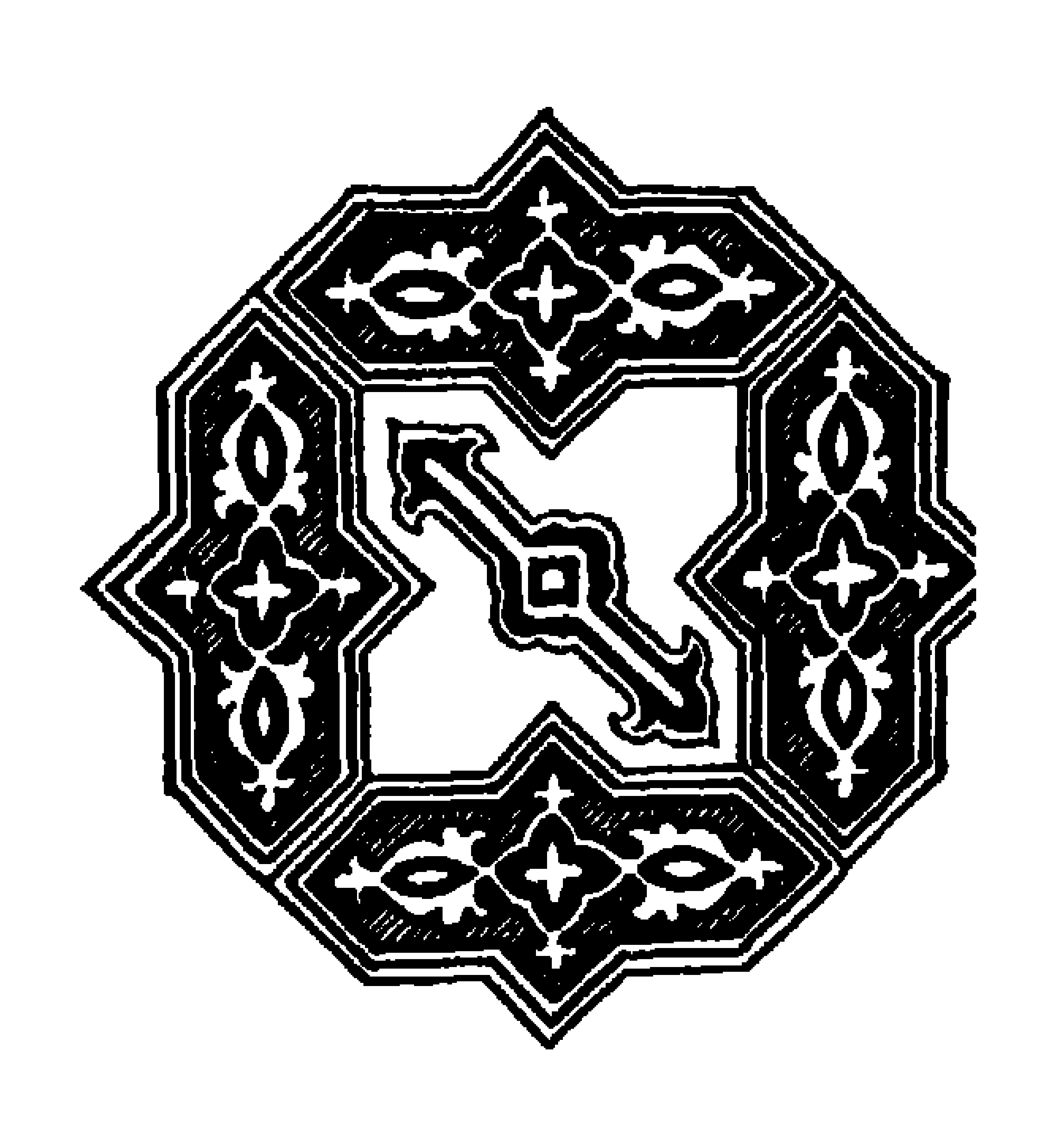
وكما وجد شكسبير والدته ميّتة ، فقد وجد أيضاً ، ولكن بوجه آخر يختلف عن الوجه الأوّل للخبر الحزين ، وجد أنّ ابنته الكبرى « سوسن » قد اقترنت بطبيب ناجح من أهل القرية . وهي تعيش معه راضية هانئة في ظلّ السعادة والرخاء .. ولعلّ هذا الخبر الثاني السعيد قد خفّف بعضَ الشيء من أحزان الخاطر الملتاع لوليم شكسبير ..

وفي شباط من عام ١٦١٦ ، أي بعد ستّ سنوات من عودته من لندن ، حضر زفافَ ابنته الثانية « جوديث » في كنيسة البلدة في ستراتفورد .

وبعد أيام قليلة من زواج ابنته سَعِدَ شكسبير جداً بلقاء بعض أصدقائه القُدامى في لندن ، وبينهم الكاتب العظيم والشهير « بن جونسون » . لقد جاؤوا إليه في ستراتفورد يدفعهم الشوق والحنين إلى الصديق الوفيّ الإنسان، وليقضوا معه بعض الوقت

مستمتعين بطراوة حديثه وطلاوة لسانه ، مستعيدين ذكريات الماضي بما فيها من شقاء وحلاوة .. وقبح وجمال ! .

وحين غادر الضيوف البيت والقرية ، لاحظ الجميع أن شكسبير لم يكن على ما يرام ، وأنّ علامـــات المرض كانت تبدو على وجهه الشاحب المُتعب !..



وفــاة شكســبير :

وفي مساء اليــوم الثالث والعشرين من شهر نيســان ١٦١٦ ، كان جميع أفراد العائلة يحيطون بسرير وليم شكسبير في غرفتـه بصمت وخشوع ..

وها هو يتفرّس بوجـه كل واحد منهم بأنفـاس متقطّعة ، ونظراتٍ تشبه نظرات من يُقاوم إغفاءةَ النوم عنـــد النُّعاس الشديد ! وها هو بصوت متهدّج خافت يُوصي الزوجة بالابنتين العزيزتين ، ويُوصي سوسن وجوديث بوالدتهما التي شاركـته تعبَ الحياة من أجل تربيتهما ..

وتضيقُ أنفاس الجميع ، ويحسُّون بالاختناق .. إنّ قلوبهم تكاد تنفطر من هـذا الموقف العصيب المشبـع بالحزن والأسى.. لقد أبكـى شكسبير في رواياته التراجيدية قلوبَ الناس على أبطالها الراحلين .. حرّك الانسان والصخر فـيما كان يُدخله على

رواياته من مشاهدَ تستدعي الحزن والبكاء ..

وها هو الآن يتحدث عن موعد رحيل « بطل الأبطال »، عن نفسه التي سترحل وإلى الأبد مخلّفةً وراءها قلباً كبيراً موزّعاً بين أفراد عائلته .. كلّ على قدر !

وتقترب الزوجة « آن » وتحاول أن تهوّنَ على رفيق العمر والجهاد ، وتثنيه عن النّطق بمثل هذه الكلمات ، فهو في صحّة جيّدة كما تقول ولكنها غيبوبة المرض :

ـ وليم ، أنت لم تيأسْ ولم تستسلمْ في حياتك إلى شيء ، فما بالك تردّد اليوم مثلَ هذه الكلمات ؟! نَمْ يا حبيبي وليم.. نَم يا زوجي العزيز ، فالطبيب أخبرني أنك بخير وستتماثل للشفاء عما قريب ..

وتقترب منه وتقبّله بحنان والعبرات المحبوسة تكاد تخنقها وتقضي عليها قبل رفيق الطريق في الحياة .. فهي تعلم أنّ ماتقوله على لسان الطبيب غير صحيح ..

فالطبيب الذي خرج من الغرفة قبل لحظات أنبأها بالخبر اليقين .. وأنّ زوجها .. حبيبها .. والد ابنتيها يعاني سكرات الموت !..

ويتكلّم شكسبير غيرَ وجل ولا هيّاب :

ــ آن العزيزة .. الوصيّة الوصيّة .. كتبتُها منذ أن مرضتُ في أوّل هذا العام .

ــ أسكت يا وليم .. بالله عليك أن تسكت .. فأنا واثقة بأنك ستشفى .

ــ لا تحاولي أن تخدعيني يا آن .. فأنا أعلم أنني سأموت ، ولست خائفاً إلا عليكم .. أريد أن أطمئنّ وأستريح في مثواي.

وتنهمر الدموع بغزارة من عيون المحيطين بسريره، وتندفع إليه ابنته سوسن ، وتُغرقُ وجهها بصدره وتبكي بُكاءً مُرّاً شديداً كاد يزلزل أرجاء الغرفة :

ــ لا .. لن تموت يا والدي .. لم نَرَكَ بعد .. لم تشبَعْ

منك أيّامُنا القليلة معك .. لن تموت .. لن تموت .. نحن بحاجة إليك يا أبي .. يا أرقّ الآباء وأحنّهم .. لن تموت يا شكسبير وتتركنا ..

ويتدفّقُ الدمع أنهاراً من عيون الجميع ، ويبكون لبكاء سوسن وجلال الخطب والموقف المؤثر الحزين جداً ..

ويُمسِكُ شكسبير بيدَيْ ابنتيه برفق وحنان ويشدُّ عليهما شدّةً أخيرة :

ـ لا .. لاتبكي يا سوسن.. لاتبكوا .. سأكون معكم.. سأكون معكم بروحي .. بخاطرك يا سوسن .. بخاطركم جميعاً يا من أحببت !!

ويَلْفُظُ الروح ، ويستسلم لرسل الِحمام، ويذهب شكسبير إلى البعيد البعيد ! البعيد الذي لن يعودَ منه ! ويرتفع صوتُ البكاء ، وتتعالى الشّهقات ، ويضطرب مَن في الغرفة . وترتمي الزوجة والبنات على صدر الراحل الكبير :

ـــ لماذا يا ربي لماذا ؟ فقد كان زوجاً باراً وأباً باراً .. ماذا سأعمل من دونه يا رب ؟ لماذا كتبْتَ لهذه الأسرة أنْ لا تعيش طويلاً ؟ إنه لم يتجاوز الثانية والخمسين .. لماذا ؟ لماذا يا رب ؟

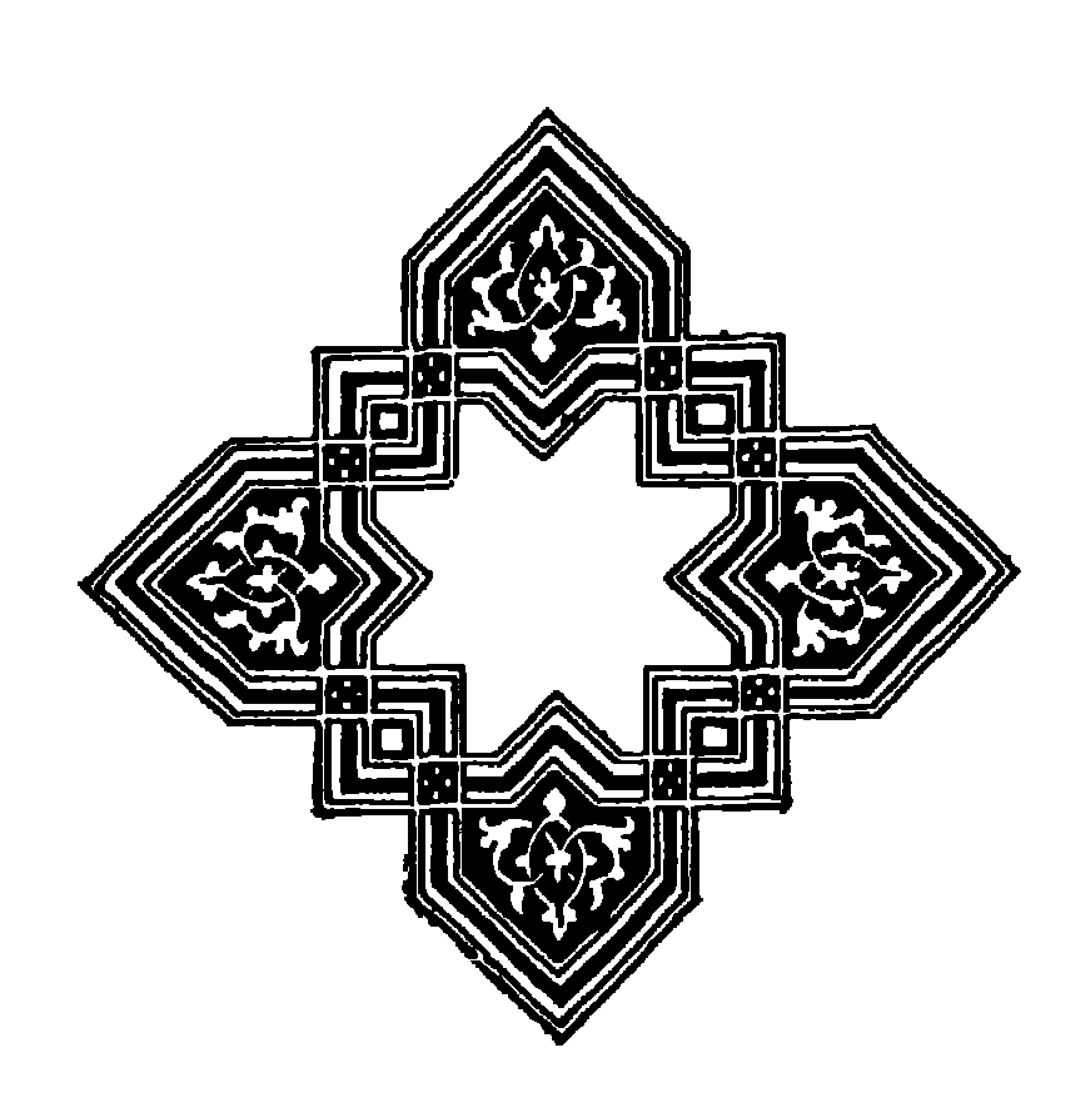
ويختلطُ صوتُ سوسن بصوت أختها جوديث في عبارات الدمع والرثاء وتعداد المآثر والمحاسن.. وتُسمَع إحداهن تقول:

ـــ لقد أفنيتَ عمرَكَ يا والدي من أجلنا . أضناك السفر والتعب .. وها أنت تحنُّ إلى السفر من جديد .. ولكنه سفر الموت يا أبي .. سفرٌ لن تعود منه إلينا .. يا أبي الحبيب !

ويجيء الكاهن ويدخل غرفة الموت .. موت شكسبير .. وموت الأحياء من حوله ! ويرجو الجميعَ أن يخرجوا من الغرفة راحةً لنفس الميْت العظيم ..

لقد رحل شكسبير ، وسار في شراع الأبدية !.. مات شكسبير وانطفأ السراج الذي أضاء مشعلَ الفكر والأدب ! مات في نفس اليوم الذي وُلد فيه ٢٣ نيسان! وما أغرب وأروع تصاريف القدر ..

لمْ تَبكِه انكلترا وحدها.. فقد بــــكاه الجميع في العالم ..
بكته الانسانية جمعاء! فهو ابن العالم في الأدب والشعر والفلسفة.
مات في عصر .. وعــاش في كل العصور حتى يومنــا هذا خالداً
حيّاً في ما خلّفه من تراث الشعر وشوامخ الأدب التمثيلي في العالم!



من روائع شكسبير

هَـاملت

زواج الملكة وحزن الأمير :

لم يكدْ يمضي شهران على وفاة « هاملت » ملك الدانمارك ، حتى تسارع زوجتــه « جرترود » إلى الاقتران من شقيقه « كلوديوس » الملك الجديد . .

لقد اعتبر جميعُ أفراد الشعب أنّ العملَ الذي أقدم عليـه الشقيق والزوجة عملاً لا إنسانياً ، ويتّصف بالبرودة وبـــلادة الحسّ .. وذهب فريـق منهم إلى أبعد من هذا في الظنّ بأنّ كلوديوس كان وراء مقتل أخيـه من أجل الاستيلاء على العرش واحتواء الزوجة !.. وإلا فما معنى هذا التصرُّف الأرعن مـن قبل الشقيق والزوجة التي تفكّ الحدادَ وتستبدلُ ثوبَها الأسود بثوب العرس الأبيض ولَمّا يجفّ قبرُ الزوج بعد ؟!

وتساءلَ البعض الآخر من النـاس : أتُرى كانت جرترود على علم بالأمر ، بل وتمّ هذا الأمر بإرادتها ومشيئتها في اغتيـال

الزوج : الملك الطيّب العادل ؟ وإلا فبماذا يُفسّر تصرُّفها هذا في الاستعجال على الزواج من شقيق زوجها ؟! وإذا لم يكنْ ذلك صحيحاً فأيُّ نوع هي من النساء وقد استبدلت أجمل الرجال بأقبحهم ؟!

وكان أكثر المتألّمين لهذا الذي حدث هو الأمير الصغير « هاملت » . فقد اجتمعت عليه فجيعتان : فجيعته بموت أبيه ، وفجيعته بعار أُمّه وخزيه من زواجها الجامح . فهو كان يحبُّ والده حتى العبادة والتقديس .. كان يؤثر أن يتنازلَ عن حقّه الشرعي في العرش لعمه سالب العرش والزوجة ، مقابل أن تبقى أُمُّه إلى جانبه تحفظ عهدَ الراحل الكريم وتصون ذكراه!

أمّا وأنها قد فعلتْ ما لا يرضي شريعة من شرائع الأخلاق والطُّهر والوفاء ، فهي قد سلبت منه كلَّ شيء وسحقتْ نفسَه وروحه وحطّمتهما شرّ تحطيم ! فهي لم تشارك ـ حسب اعتقاده ـ بقتل أبيه غدراً فحسب، بل عمدتْ بفعلها هذا ـ وهي لا تدري ـ إلى القضاء والاجهاز عليه .. هو فلذة كبدها !

وأيُّ ضير في هذا العمل عند امرأة فقدتْ كلَّ إحساس البشر ، ولم تعدْ تعمل بقلبها وروحها .. بل بجسدها على الفراش الذي تنام عليه مع عمّه ، وهو فراش والده المغدور !

إنه يغرق في بحر من الظنون والأفكار .. فهو ينام على جمرها .. ويفيق على نيرانها .. إنها تحرقه .. تكويه .. وتشغل فؤاده . ها هو يذوي وينوء تحت أثقال هذه الأفكار والظنون ، ويبدو كاسفَ البال ، شاردَ الذهن مظلوماً ، وقد فقد نضارته وحيويّته المتدفّقة . وترك الدنيا لأهل الدنيا ، وعاش مع الفكر الحزين والقلب الموجع !

وعبثاً حاولتْ أُمّه الملكة جرترود وعمُّه الملك كلوديوس أن يرفّها عنه ويجتذبا قلبَه إليهما ، فقد ظلّ سادراً في الهمّ والحزن والتفكير . فقد كان أكثر ما يشغل باله ويقضُّ مضجعَه هو شكُّه في الطريقة التي مات بها أبوه . فالرواية التي أعلنها عمه للملإ وهي أنّ ثعباناً تسلّل إلى الملك في البستان ولدغه فمات ، لم يكن ليصدّقها في أيّ شكلٍ من الأشكال . فقد كانت تراوده

شكوك تصوّر له كلوديوس نفسه في صورة ذلك الثعبان .. وبصراحة فهو يرى أنّ الشقيق كلوديوس قتل شقيقه الملك هاملت طمعاً في تاجه ، وعلى أثر علاقة أثيمة مع الملكة زوجته. فكان الثعبان الذي لدغ والد هاملت هو الذي يجلس - حسب اعتقاده - فوق عرشه وينام في فراشه .

تُرى هل كان هاملت مُصيباً في ظنونه وتخيّلاته ؟! إنَّ أشدَّ ما كان يُتعبه ويقضّ مضجعه هو تصويبُ سهم ظنونه نحو والدته . إلى أيّ حدٍّ كان لها ضلعٌ في الجريمة . وهل تمّ ذلك القتل بعلمها ورضاها ، أم أنها فُوجِئتْ به مثل سائر الناس ؟ إنه في تيهٍ وفي ضياع .. لا يدري ولا يعلم أيَّ رأي ينبغي أن يراه في والدته ..

ظهور شبح والده:

وفي الوقت الذي كان يفتّش فيه هاملت عن الحقيقة ويقطعُ الشكَّ باليقين حول مقتل والده، سَرَتْ شائعةٌ بين الناس أن هناك شبحاً يظهر في منتصف الليـــل عند القصر .. وأنّ هذا الشبح قريبُ الشبه جداً بصورة الملك الوحل ..

وكان بين الذين شاهدوا هذا الشبح « هوراشيو » صديق هاملت الحميم. فقد اتّفق الجميعُ على القول بأنّ الشبحَ قد ظهر في ثلاث ليالٍ متتالية، وكان وجهه ينمُّ عن حزن وألم عميقَين .. وأكّد من رآه، بمن فيهم « هوراشيو »، بأنه هو الملك هاملت في لحيته الصفراء المفضّضة بالشّيب كما كان في حياته .. وقد حاولوا مخاطبتَه لحمله على الكلام، ولكنه كان لا يردّ ولا يُجيب. وخُيِّل إليهم في إحدى المرّات أنه كان يعتزم الكلام. فلما أصغوا وأرهفوا الآذان فرّ من أمامهم عند سماعه صياح الديك عند

انبلاج الفجر .

وهنا أدرك هاملت أنّ ماسمع من روايات متّفقة في أطرافها جملةً وتفصيلاً على أنّ هذا الشبح هو شبح والده، وأنه قد جاء إلى القصر ليفضي بالسرّ الذي كان وراء قتله ومن هم الفَعَلة والجُناة..

وقرّر هاملت أن يصاحبَ صديقَه هوراشيو وأحدَ حرّاس القصر في الانتظار والسّهر لحين ظهور هذا الشبح علّه يوفّق بما عجز عنه الآخرون ..

وبينما كان هاملت يتحادث مع صديقَيه في تلك الليلة من ليالي الشتاء الباردة ، إذ قطع عليه هوراشيو ذلك الحديث فجأةً معلناً بصوت مرتجف عن ظهور الشبح !

وما إن أبصر هاملت روحَ أبيه تنتصب أمامه قامة شفّافة حتى بلغ به الرّوع والخوف ودبّ فيه الذعر والهلع ، وسرتْ القشعريرة في أوصال روحه وجسده .. فقد خشي أن لا تكون هذه الروح هي روح أبيه .. بل روحٌ من الأرواح الشرّيرة التي

تهيم في الليل البهيم .. ولكنه شيئاً فشيئاً استردّ قواه الخائرة ، وشجاعتَه المفقودة ، وهو يرى والده هو نفسه ينظر إليه في كثير من الاشفاق والحنان . وانطلق يخاطبه باسمه :

ــ هاملت ! ملكي ! أبي ! لماذا تركتَ قبرك .. إنني أعدك بأنْ أبلّغ أيّ رسالة وأفعلَ أيّ شيء لتستقرّ روحُك في أمان وسلام !

ولم يجبْ شبحُ هاملت على سؤال ولده، بل أومأ إليه برأسه أن يأتيَ معه إلى مكان آخر حيث ينفردان فيه وحدهما . وعبثاً ذهبتْ محاولةُ هوراشيو والحارس لإثنائه عن الذهاب مع هذا الشبح الذي قد لا يكون شبح أبيه ويُلحق به الضرر والأذى . فقد مشى هاملت مع شبح والده في جنح الظلام وكأنّ له جسارة الأسود . فهو لم يعد يخشى على حياته . وهل حياته إلا الموت في ظلّ هذه الشكوك والهواجس والأحزان .

ولما صارا بمعزل عن عيون الصديقَين، هتك الشبح حجاب الصّمت لأوّل مرّة ، وأخبره أنه حقاً شبح أبيه هاملت الكبير

الذي قُتل غدراً وببشاعة. وروى له بالتفصيل كيف جرت حادثةُ قتله على يد عمّه كلوديوس الذي طمع في التاج وفراش الزوجة :

ـــ كنت غافياً في بستان القصر كعادتي بعد ظهر كل يوم ، وإذا بهذا الأخ الغادر يتسلّل إليّ وأنا أغطّ في النوم ، ويصبُّ في أذنيّ قارورة من السمّ الزُّعاف الذي أُعِدّ إعداداً خاصاً كي يسري خلسةً في العروق ، فيجمدُ الدّم وينشر على سطح الجلد طفحاً أشبه بالبهاق !!

وتابع شبح هاملت الكبير قائلاً :

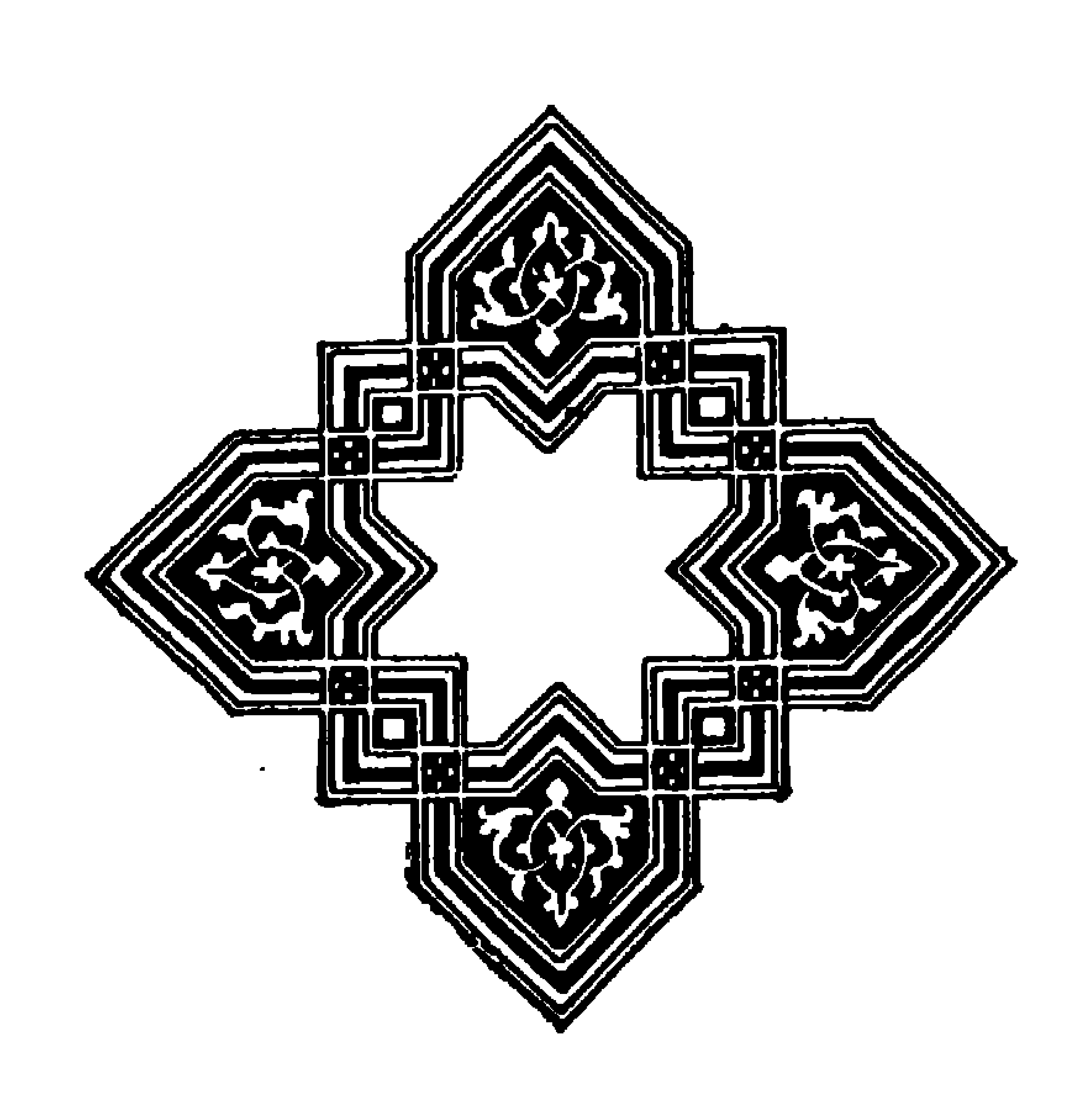
ـــ لا شيء أسألك يا ولدي سوى الانتقام من هذا الذي حرمني الحياة والمُلك والملكة !

وحذّر الشبح هاملت الفتى أشدّ التحذير من الاندفاع بعد الانتقام من عمّه الشرّير إلى ارتكاب أيّ عنف ضدّ أُمه ، وقال:

ـــ أنا أعلم بألمٍ وتفجّعٍ إقدام أُمّك على تمزيق ثوب عفّتها ،

وإظهار خيـانتها لي بالزواج من قاتلي ، وهي تعلم أنه قاتـــلي .. ولكني أناشدك وأحذّرك من إلحـاق الأذى بها . بـل ينبغي أن يُترك حسابُها لمن بيده مُلْك السماء، ولأشواك الضمير التي تتقلّب عليها كلما ضمّها الفراش .

وقطع هاملت عهداً لوالده بأنه سينفّذ كلّ ما طلبه منـــه بدقّة وحرص . وعندئذ اختفى الشبح في الهواء .



قــرار الإنتقــام :

ولمـا أمسى هاملت وحده ، تنازعتـه الأفكار ، واستولتْ عليه حالةٌ غريبة .. وصمّم على القرار الخطير .. قرارِ الانتقـام والثّار من قاتل أبيه .. وهو لهذا سيَعمدُ إلى اتّخاذ كافّـة السُّبل من أجل الوصول إلى هذه الغاية .. وعزمَ على شيء !

لم يَبُحْ هاملت لأحد بما دار بينه وبـين الشبح إلا لصديقـه العزيز هوراشـيو . وطلب منه ومن صديقـه الحارس أن يحفظا سرّ ما شاهداه في تلك الليلة من ظهور الشبح .

وكانــ الشيء الذي عزم عليـه كمدخل لتنفيذ مآربـــه وخطّته أن تظاهر بالجنــون .. فكلُّ ما سيصدر عنه بعد اليـوم لن يوجسَ في نفس عمه خيفةً أو ارتياباً . والجنونــ هو خير قناع يستر به ما يدور في أعماق قلبه وذهنه. وأجاد تمثيلَ الجنون

وقد ساعده على ذلك نوازع الاضطراب الفوّارة في أعماقه وأعصابه .

وانخدع الملك والملكة .. وظنّا بأنه جنون الحب .. فهاملت كان يهوى فتاة حسناء اسمها « اوفيليا » . واوفيليا هي ابنة بولونيوس كبير الأمناء والمستشارين في القصر الملكي . لا بدّ أنها كانت وراء جنونه . هكذا ظنّ الملك والملكة واطمأنّا إلى ذلك التعليل .

وحتى يُتقن دورَ الجنون ، فقد بدأ هاملت يعامل حبيبته اوفيليا معاملةً قاسية وفظّة .. وهو الذي كان يهيم بها حبّاً ويرسل لها الخطابات والهدايا .. إنه المرض .. إنه الجنون !

لقد أتقن هاملت لعبتَه ، وصدّقه الجميع ، ولا سيّما والدته وعمه . وكيف لا يُصدّق وهو يعامل حبيبته اوفيليا بمثل هذه الفظاظة والخشونة بعدما كانت الروح منه قبل الجسد !

وفي خلوته مع نفسه ومع الأفكار التي تنطلق به بعيداً في

الترتيب والاعداد ليـــوم الثأر والانتقام ، أخذت تساوره شكوكٌ معاكسة تتطلّب منه التريُّث والتمهُّل وعدم التسرُّع في الانتقام .. فقد يكون هذا الشبح شيطاناً مريداً ظهر له في هيئة والده ويريد منه أن يصبحَ قاتلاً لعمه دون إثمٍ جناه ! يا لله !.. كيف التأكّد من صحة ما رأى وما سمع ؟! أيُقدمُ على فعـــلةٍ نكراء دون وضوح في الرؤيا وإثبـــاتٍ في الواقعة ، ويصبح مجرماً وهو نفسه يسعى للانتقام من الاجرام إنْ كان حقـاً هناك إجرام ؟!

لا بـدَّ من قرائن .. ولا بــدَّ من شواهد تُثبت صحة ما رأى وسمع !.. كيف السبيل إلى هذا .. وأين ؟؟

ويهتدي هاملت إلى الطريق .. ومن ثم إلى الحل .. فقد حضر إلى البلاط جوق من الممثلين ، كان الأمير هاملت يُسرُّ بمشاهدتهم فيـما مضى ، ولا سيّما حين يُصغي لواحد منهم وهو يُلقي قطعةً مؤثِّرة من تراجيديا تصف موتَ الملك بريام « ملك طروادة » ، وحُزْن الملكة « هيكيبه » عليه .

وأسرع هاملت يرحّب بأصدقائه القدامى من الممثلين. ولما تذكّر ما كانت تُحدِثه لديه تلك المقطوعة من نشوة وسرور طلب من الممثل أن يعيدَها أمامه. فلبّى الممثل رغبتَه ببراعة تامة، وأدّى تلك القطعة أداءً نابضاً بالحياة، مُبرزاً تلك القتلة البشعة لذلك الملك الشيخ الواهن العظم، وتشتُّتِ شعبه ودمارِ مدينته بالحريق، والحزن الجنوني الذي أصيبتْ به ملكتُه العجوز، حيث راحتْ تجري حافيةَ القدمين في أرجاء القصر، وعلى رأسها الذي كان يتزيَّن بالتاج فيما مضى خرقةٌ قذرة حقيرة.

وطفرتْ الدموع إلى عيني هاملت وإلى عيون الحاضرين جميعاً الذين خُيِّل إليهم أنّ تلك الحوادث تجري فعلاً أمام أعينهم، بل إنّ الممثل نفسَه اندمج في أداء دوره فغصّ بدموعه وشَرِق بزفراته.

لقد فتح هذا المنظر أمام هاملت أبوابَ التفكير. فلئن كان هذا الممثل من رقّة الإحساس وسلطان المخيِّلة بحيث ينتحب باكياً على رجلٍ لم تره عينه أبداً، ومن أجل ملكة

عجوز طوى الموتُ شخصَها منذ مئات السنين . فكيف يتبلَّد إحساسه هو ، ولديه دافعٌ حقيقي حي للحزن والانفعال. فقتيله هو أبوه وملكه الحق .

ويتذكّر قصّة ذلك القاتل الذي خفي أمره على الناس إلى أنْ شاهد يوماً تمثيل جريمة قتل ، ووجد الحوادث شديدة الشبه بجريمته ، فكأنما انتفضتْ جريمتُه من حفرة الماضي حيّــةً أمام عينيه ، فلم يستطع مقاومةَ تأثيرها على أعصابه ، وصرخ معترفاً بالجريمة التي اقترفها !

وفي الحال خطر له أن يصنعَ شيئاً كهذا ، فقرّر أن يقوم هؤلاء الممثلون بتمثيل رواية صغيرة يُعدُّها لهم عن مقتل أبيه كما تصوَّره ، ويُؤدّي الممثلون هذا المنظرَ أمام عمه .

الفخ واكتشاف الحقيقة :

ويحضر كلوديوس وجرترود التمثيلية ، ويبرع الممثلون في أداء الأدوار كما رسمها لهم هاملت .. وحين يُقـــدمُ أحدُ الممثلين على دس السم لبطل الرواية وهو نائم في البستان من أجل الظفر بالزوجة العشيقة ، ينتفض كلوديوس وينهض مغادراً المكان ، متصنّعاً المرض ، وقد ظهر عليه الوجل والفزع، فها هو التشابه بين الحادثتين يُربك كلوديوس ويجعله يتذكّر جريمتـــه بقتل أخيه من أجل العرش والزوجة !

لقد صحّ قول الشبح .. وهو حقـاً والده الملك هاملت .. وحقاً إنّ قاتل أبيه هو عمّه كلوديوس .. لقـــد انجلتْ غيمةُ الظنون وتأكّد الآن بما كان يشكّ فيه .. وما عليه الآن إلا أن ينتقمَ من القاتل !

وتستدعي الملكة ابنَها هاملت إلى غرفتها لتوبّخه على مجافاته

للذوق السليم في اختيار مثل هذه التمثيلية .. ويسبقُه إلى الغرفة بولونيوس كبيرُ المستشارين ، ويختفي وراء إحدى الســـتائر بإيعاز من الملك ، ليسجِّل له كلّ ما يدور بينهما من حوار .. فقد يُفضي الابن لوالدته بما بدأ يشكّ فيه كلوديوس .

ويحتدم الحوار والنقاش بين الملكة وابنها ، ويتبادل كلٌّ منهما الاتهام للآخر بمجافاة الذوق وعدم اللياقـــة .. ويشتعل الموقف بالصُّراخ والزَّعيق :

ـــ أتراك نسيتَ من هي التي تكلِّمها هكذا ؟

ـــ ليتني أنســـى ! فأنتِ الملكة . أنت هي زوجةُ أخي زوجِها . أنت هي أُمّي ، ليتك لم تكوني من أنتِ !

وتنتفضُ الملكة ، وتهبُّ واقفة ، وتهمُّ باستدعاء الملك أو أحد حرّاسه لمعاقبته على هذه الجرأة الوقحة المُتناهية مع أمه الملكة .. ويَقبضُ هاملت على معصميها بعنف ويُكرِهُها على الجلوس ، ويستولي عليها الفزع ، وتخشى أن يصيبها مكروه

وهو في نوبة جنـون .. وتصرخ ، وإذا بهاملت يسمع من وراء الستار صوتاً يصيح :

ــ النجدة ! أدركوا الملكة !

ويُسرع هاملت إلى المكان الذي انطلـق منه الصوت ظنّـاً منه بأنه كلوديوس عمه ، ويجرِّد سيفَه ويطعنه من وراء الستار .. ويسقط قتيـل ، ولكنه ليس عمه ، بـل هو بولونيوس المستشار المسن ووالد حبيبته أوفيليا ! ويكاد يجنّ حقاً لما فعل .. لقـــد قتلَ والدَ أوفيليا الحبيبة !

ولم يـتردّد هاملت في هذه الساعة وقـد حصل ما حصل ، وانتابته نوبة من الجنون أن يكشفَ لأُمِّه ما في قلبه وفكره .. ويخبرها بحقيقة الأمر .. وكلّ شيء عن مقتل والده ، وعـــن وقوفها إلى جانب عشيقها والزواج منه . وإنّ فعلتها هذه قد احمرّ لها وجه السماء خجلاً ، واعتـلّ لها بطنُ الأرض غثياناً .

ظهور الشبح مرة أخرى:

وبينما هو مسترسل في توجيه عباراته النارية إلى أمه مصوراً لها ذميم فعلتها حين تناست الملك الراحل وسمحت لنفسها بعد أمدٍ قصير بالزواج من أخيه الذي اشتهر بين الناس أنه قتله، وذلك نكث منها للعهد الذي قطعته على نفسها نحوزوجها الأول. وإنه لنكث يكفي لإهدار كل قيمة لعهود النساء، والتشكيك في كل قدر لعفافهن وصلاحهن، فلا يكون شيء من ذلك لديه إلا اعتبر نفاقاً وخداعاً ورياء. ولا تكون عقود الزواج التي يرتبطن بها إلا أحبولة أو قناعاً، ولا يكون دينهن إلا سخرية أو مهزلة أو محض كلمات تتلى على الأسماع ليس لها معنى ولا وراءها تقوى.

وبينما هو ينهال عليها بمعاول التعنيف ومطارق التوبيخ وبلهجة كأنها صوت الديونة في يوم الحساب، إذ بشبح أبيه

يدخل الحجرة وهو على الصّورة التي كان بها في حياته ، وكما تراءى له وحدّثه في منتصف الليـل . ويسأل هاملت والده وهو في حالة من الرعب الشديد أيَّ شيءٍ يبتغي ليقدّمه إليه بلا تردُّد. ويجيبه الشبح أنـه ما جاء إلا ليذكّره بالثأر الذي وعده بـه . ثم يختفي .

وتصاب الملكة بالخوف والهلع وترتعد أوصالها وهي ترى ولدهـا يحدّث الهواء . ولم يستطع هاملت أن يُفسّر لأُمه كلاَمه الذي خاطب به شبح أبيه ، لأنها لم تره .

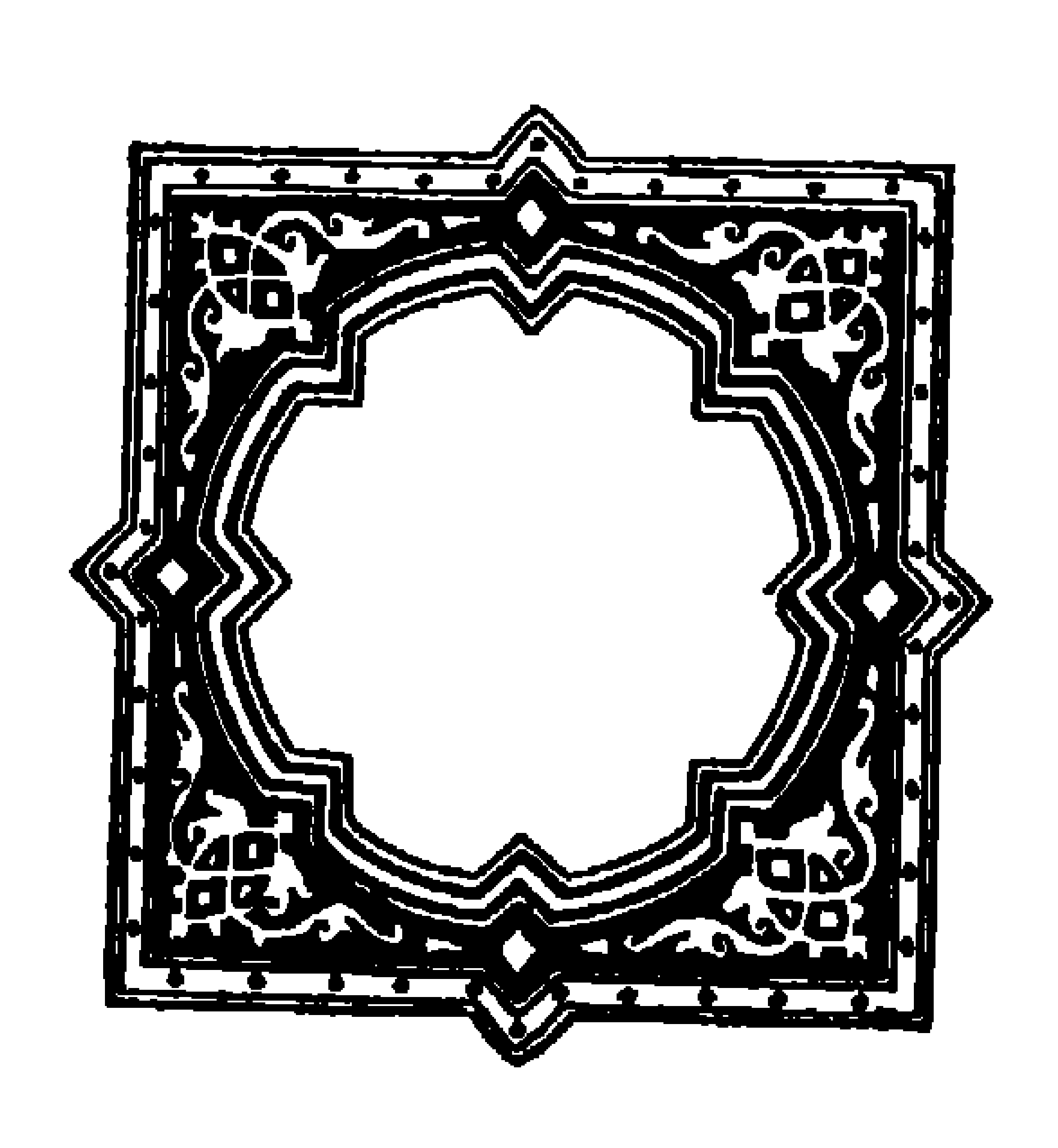
ويخبرها هاملت بأنّ خفاياها الـــتي لا سبيل إلى مَحوِها بالتجاهل ، هي الـتي بعثتْ روحَ أبيه من قبرها ، ولم تبعثها مـن قبرها خيالات جنونه المزعوم ، وقال :

ـــ خذي هذا معصمي، تحسّسي نبضي ، تزينه رتيباً منتظماً وليس مضطرباً كنبض المجانين !

ويتوسّل إليهــــا بدمعٍ مدرار أن تتوجّه إلى السماء بقلب

خالص فتعترف بخطاياها السابقـة ، وتتجنّب في مستقبـل حياتها معاشرةَ الملك وصحبه ، ولا تعتبر نفسها زوجته بعد الآن ، حتى إذا أصبحتْ جديرةً بأمومته ، فعندئذ سيجلّها وسيُبهج قلبه أنْ يركعَ أمامها ويطلب منها بركتها كما ينبغي أن يطلبَها البنـون من الأمهات .

وينتهي الحديث بينهما بوعد تقطعه الأم على نفسها أن تفعل كلّ ما طلبه منها .



نفي الأمير .. والمؤامرة على حياته :

ويتّخذ الملك كلوديوس مِن قَتلِ هاملت لمستشاره الشيخ بولونيوس ذريعةً لنفيِه من المملكة ، رُغْمَ أنّ الأمير هاملت كان محبوباً من أفراد الرعيّة وكذلك من أُمّه ، فهي إلى جانب مساوئها وعيوبها فقد كانت مولعةً بالفتى الأمير .

ويجد كلوديوس في قرار إبعاده خلاصاً منه . وبدهاء الملك الماكر وخبثه يوهم الجميع ، ولا سيما والدته ، بأنه يريد إنقاذ هاملت في عمله هذا ، لأنه يخشى من انتقام وثأر أولياء دم بولونيوس . ويأمر بسفره بالبحر على ظهر سفينة متجهة إلى انكلترا بصحبة اثنين من رجال البلاط يبعث معهما خطابات إلى البلاط الانكليزي الذي كان يَدين يومذاك بالولاء للدانمارك . وفي هذه الوسائل يطلب كلوديوس من بلاط انكلترا إعدام هاملت بمجرد نزوله إلى الأراضي الانكليزية ..

ويتسرّب الشكّ إلى نفس هاملت ، ويفطن إلى الحيلة والمكيدة التي دبّرها له عمه كلوديوس لما يعرف عنه من سمات الغدر والخيانة . وببراعة فائقة يمحو اسمه من الرسائل ويضع بدلاً منه اسمَ الرسولَين اللذين بعثهما الملك حرّاساً عليه. ويُعيد إغلاقها وتثبيت أختامها ووضعِها حيث كانت من قبل ..

وفي أثناء الابحار يهاجم السفينةَ بعضُ القراصنة، وتنشب معركةٌ بحرية حامية ، ويستلّ هاملت سيفَه ويهجم بمفرده، وينزل إلى سفينة القراصنة ، بينما تركن سفينته إلى الفرار بمن عليها تاركة إياه لمواجهة المصير وحده . ويتعرّف القراصنة على شخص الأمير فيكرّمون وفادته ويوصلونه إلى أقرب شاطىء من شواطىء الدانمارك . ومن هذا المكان يبعث هاملت برسالة إلى عمه كلوديوس يخبره فيها بالظروف الغريبة التي ردّته إلى وطنه ، ويُعلن له عن تأهّبه للمثول أمام جلالته في اليوم التالي .

ويعود هاملت . وكان أوّلُ شيء بدا لعينيه ، منظر فاجع حزين. إذ كانوا يشيّعون بالألحان الجنائزية المؤثرة جسدَ الحسناء

الشابة أوفيليا ، التي كان قلب هاملت معلّقاً بها . فإنّ صدمة وفاة أبيها بيد حبيبها أطارتْ صوابَها ، فكانت تتجوّل مسلوبةَ العقل والفطنة لا تعي شيئاً بين المروج والأحراج والغابات ، تصنع القلائد من الزهر ، وتتغنّى بأغاني الحب كالحوريّات . وفي ذات يوم بينما كانت جالسة على شاطىء جدول ينساب بين المروج ، وتتأرجح على الأغصان ، انكسر بها غصن ، وسقطت في مجرى الجدول ، فثقُلتْ بثيابها وغاصتْ حيث لقيتْ حتفها غرقاً ..

وكانت جنازة هذه الحبيبة الحسناء التي تعلّقت بها جميع القلوب قد أقامها شقيقها « لايرتس » ، وحضرها الملك والملكة وسائر أفراد البلاط . وأبصر هاملت بعينيه الأزهار وهي تُنثر على القبر ، كما هي العادة عندما يدفنون فتاة عذراء ، ورأى الملكة تنثر الزهر بيديها وهي تقول والدمع ينهمر من عينيها :

ـــ النضارة للناضرة ، والحلاوة للحلوة ، والجمال لربّة الجمال! كنت أرجو أن أمهّد بيديّ فراش عرسك أيتها العذراء

الجميلة .. والزهرة الناضرة بين أزاهر الشباب الغض والشمائل الحلوة . ولكني أراني اليوم وقد سامتني المقادير أن أسوّي بيدي مهادَ قبرك يامَن كنت حَرِيّة أن تمسي في يوم قريب عروس ابني هاملت ..

وسمع بعد ذلك أخاها يستصرخ السماء أنْ تُنبت من قبرها أزهار البنفسج يانعةً كيناعتها وديعةً فوّاحة كفَوْحِها ووداعتها. ثم رآه يَثِبُ إلى جوف القبر وقد أخرجه الحزن الشديد عن طوره وراح يصرخ في الحفّارين أن يُهيلوا عليه جبالاً من التراب حتى يُدفنَ معها ..

وشعر هاملت في تلك اللحظة بحب هذه الفتاة الجميلة الرقيقة يعود إلى قلبه بكلّ سطوته . وعزّ على نفسه أن يرى أخاها يُظهر عليها من الحزن كلّ تلك اللوعة! وهو الذي كان يظنّ أنّ حبّه لأوفيليا يتجاوز حبّ أربعين ألف أخ !

وفي ثورة ، كشف القناعَ عن نفسه ووثب إلى القبر حيث كان لايرتس واقفاً ، وقد استولى عليه من الحزن الجازع مثل

ذلك الأخ أو أكثر .. ولما رأى لايرتس هاملت الذي كان سبباً في موت أبيه ثم أخته ، أخذ بعنقه أَخْذَ العدوّ الخصيم، إلى أن فرّق المشيّعون بينهما .

وبعد انتهاء الجنازة اعتذر هاملت عن تسرّعه في إلقاء نفسه داخل القبر كأنما يتحدّى لايرتس . وتعلّل لذلك بأنه لم يكن ليُطيق أن يرى أيّ إنسان يبزّه في الحزن على وفاة الحسناء أوفيليا ..

وهكذا بدا في تلك اللحظة أنّ الشابّين النبيلين صَفَّيا ما بينهما من خلاف وضغينة ..

الثأر من كلوديوس :

ولم يفلتْ الملك هذه الفرصةَ ، فدبَّر مكيدةً لقتل هاملت بيد لايرتس الحزين ، الغاضب على موت أبيه وأخته أوفيليا . وأعلن عن إقامة مبارزة ودّية بينهما من أجـــل التصافي وعودة الود. وبإيعاز منه يُعدُّ لايرتس سيفاً مسموماً ليبارزَ به هاملت. وكان الاثنان مشهورَين بالبراعة في لعب السيف.. وفي بدايـــة المباراة ترك لايرتس لهاملت الفرصة كيْ يتفوّقَ عليه قليـــلاً ويكسب بعضَ النُّقط . وكانت هذه هي الخطة والمكيدة .. وكان الملك يتعمَّد الحماس ويهلّل ويهتف لبراعة ابن أخيه ويشرب في صحته النخب تلو النخب .

وبعد فترة قصيرة انقضّ لايرتس فجأة على هاملت بسلاحه المسموم . ولكن هاملت راغ من تلك الهجمة وانتهى الالتحام بأن أسقَطَ سيفَ غريمه فداس عليه بقدمه وألقى إليه بسيفه كما

يحدث كثيراً في مثل تلك الالتحامات ، ثم حمي الصراع بينهما من جديد وجَرَحَ هاملت لايرتس بسيفه فأحاق به عاقبة غدره.

وفي تلـــك اللحظة بالذات أطلقتْ الملكة صرخـةَ ذعر وصاحتْ أنهـــا سُقيتْ السّم . والحقيقة أنها تجرّعتْ من كأس كان الملك أعدّهـا لابنها هاملت ، مقدّراً أنّ حرارة المباراة قـد تجعله يعطَش فيطلب كأساً يَروي بها ظمأه ، وفي هذه الكأس مزج الملك الغادر سمّاً زعافاً ليقضي به عليه على سبيل الاحتياط إذا فشل لايرتس. وفات الملك أن يحذّر الملكة من تلك الكأس. وماتتْ الملكةُ وهي تصرخ بأنفاسها الأخيرة أنها سُقيتْ السم .

ولما رأى لايرتس حياتـه هو الآخر تتسرّب من جسده ، اعترف اعترافاً كاملاً بالحيلة التي دبّرها وكيف راح هو ضحيّتها. ثم أخبر هاملت أنه ما دام قـد لمسه في أوّل المباراة وخدشه هذا الخدش الهيّن بطرف سيفه قبـل أن ينزعه منه ، فليس أمـــام هاملت سوى نصف ساعة على الأكثر يعيشها في دنيا الأحياء لأنه ما من ترياق يمكن أن ينجّيه من فعل ذلـك السم . وبعد أن

طلب لايرتس من هاملت الصفح والغفران لفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت آخر كلماته اتّهامٌ صارخ على مسمع من الجميـــع للملك كلوديوس بأنه تَسَبّبُ تلك النكبات ورأسها المدبّر .

ولما رأى هاملت أنّ منيّته قد دنتْ، وقد بقيتْ في السيف بقيّة من السّم ، انقضّ من فوره على عمه الغادر ، واخترق بسن السيف صدره عند موضع القلب ، موفيـــاً بهذه الطعنة الوعدَ الذي قطعه لشبح أبيه أن يثأر لمقتله !

وبعد أن اطمأنّت نفسه للوفاء بعهده ، بدأ هاملت يشعر بأنفاسه تَضعف وتتلاشى ، وبالحياة تتسرّب من جسده، فالتفت صوب صديقه العزيز هوراشيو الذي شهد مأساته الدامية من بدايتها إلى منتهاها ، وبصوت ضعيف تقطِّعه حشرجةُ النزع راح يناشده أن يخصّص حياته لرواية قصّته هذه على سمع الزمن . وهمدَ قلبُه وسَكنَ ..

العاصفة

العاصفة

هناك جزيرة صغيرة تقع في عُرض البحر ، خالية من السكان إلا من رجلٍ عجوز يُدعى « بروسبيرو » وابنته « ميرندا » . وكانت ميرندا هذه ابنةً جميلة ولطيفة يظهر على محيّاها الطّهر والبراءة .. أما والدها بروسبيرو فقد اتّخذ غرفةً صغيرة في إحدى الصخور ليتابعَ فيها دراستَه السحريّة ويتعمّق في هذا الفن ، إذ كان هذا العلم سائداً في ذلك العصر ، وقد ألِفَه معظم المتعلمين .

وكان يقطن في تلك الجزيرة أيضاً ساحرة داهية نذرتْ نفسها لأعمال الشرّ ، وحبْس الأرواح اللطيفة داخل الأشجار وتعذيبها . أما ابنها « كاليبان » فقد كان صورةً مطابقة لأُمّه ، إذ كان هو أيضاً يتلذّذ بتعذيب الأرواح الطاهرة .

علم بروسبيرو بذكائه وفنه أنّ الجزيرة التي يسكنها هي

مسحورة ، فعمل بفنه وأسحاره وأعادها إلى حالتها الســـابقة .
حاول بروسبيرو تعليم كاليبان عمل الخير والصلاح ، لكنّ طبيعتَه الشرّيرة التي ورثها عن أُمّه الماكرة « سيكورس » كان من الصعب جداً تغييرها .

أما « آريل » زعيم الأرواح الطاهرة فقد كان وفيّاً مخلصاً لسيده بروسبيرو حيث كان ينفّذ كل تعاليمه وأوامره بطاعة تامة . وكثيراً ما كان آريل يقوم بتعذيب كاليبان ويلقيه بالوحل ويسخر منه أحياناً بقهقهة الهزء والتحقير . وغالبـــاً ما يقف في طريقه متّخذاً شكلَ قنفذ ويَخِزُهُ بشوكه الحاد .

ذات يوم رأتْ ميرندا مركباً في عرض البحر تتلاعب به الأمواج الهائلة وتتقاذفه العواصف ، ويكاد يبتلعه اليمّ .. خَيَّم الحزن على ميرنـــدا وتغيَّرت سريرتُها وأطلقتْ صرخةً من الأعماق : « هل من مغيث .. هل من مدرك ؟. إنّ المركب سيتحطّم ويتناثر .. يا للمساكين ، يا للتعساء » . وأسرعت إلى أبيها قائلة : « أنظر يا أبي ، والله لو كانت لديّ قوّة لجعلت الماء

يفيض تحت الأرض على أن لا يتحطّم ذلك المركب التعيس مع هذه الأنفس الثمينة والأرواح الغالية التي فيه » .

كان بروسبيرو حقاً يستطيع أن يُنقذ ذلك المركب ، فهو ذو قوّة خارقة في عمل السحر ، وإشارة واحدة منه تكفي لتهييج البحار وإثارة العواصف .. لقد كانت له القدرة على التحكّم بالطبيعة بواسطة الأرواح التي تتحرّك بإرادته .

صاحت ميرندا : « رحماك يا والدي العزيز ، إفعلْ شيئاً لهذا القارب رحمةً بالمنكوبين وشفقةً بالمساكين .. إعمل .. إعمل من أجلي ، رحماك يا أبي » .

فطمأنها والدها وهدّأ من روعها واعداً بأن لا يُصاب أحد من ركاب السفينة بسوء ، وقال : « سأعمل .. سأعمل من أجلك يا ابنتي الجميلة .. وسيُنقذ المركب » .

وهنا خطرت فكرة من الماضي لبروسبيرو ، وسأل ابنته : « أعتقد أنك تجهلين من أنتِ ومن أين أتيتِ ، إنكِ تعلمين فقط

أنني أبوك وأعيش معك في ذلك الدهليز الصخري الحقير ، أفلا تذكرين شيئاً قبل مجيئك إلى هنا حين كنت في الثالثة من العمر؟»

أجابت ميرندا : « بلى يا سيدي أذكر ، أذكر ذلك كحُلم أو كومضةٍ خيالٍ بارقـــة . نعم .. كانت هناك أربع أو خمس نساء يعتنين بي .. » .

فقاطعها بروسبيرو : « كان هناك أكثر من ذلـك ، ولكن كيف بقيَتْ هذه الذكريات تعيش في مخيّلتك حتى الآن ؟ » وأضاف : « هل تذكرين مجيئك إلى هنا ؟ »

ـــ كلا يا سيدي .

وسرد عليها بروسبيرو القصة بكاملها وقال: « يا ابنتي الجميلة كنتُ منذ اثني عشر عاماً حاكماً على دوقية ميلانو ، وأنتِ كنت وريثتي الشرعية الوحيدة . وقد سلّمتُ أخي الحكم أثنـــاء هذه الفتره وأهملتُ العالم حيث انكببتُ على الدراسة لتثقيف عقلي. فاستغلّ أخي انطونيو هذه الفرصة ، وأخذ يعمل في الخفـاء مع

ملك نابولي القوي ، حتى استطاع تنفيذ خطته . وقد حملَنـــا أنطونيو إلى عرض البحر وأنزلنـــا بقارب صغير ، موقناً أننا سنهلك ، لكنّ أحد أفراد رعيّتي المخلصين وضع لنا طعاماً وماء وكتبي السحرية التي هي عندي أغلى شيء في هذا العالم ، وانحصر همّي في تعليمك وتثقيفك، وما أكثر ما استفدتِ من تعاليمي».

ثم أخبرها بروسبيرو بأنه سينتقم وسيحضر أخاه الخائن وملك نابولي . وهنا لمس ابنته ميرندا بقضيبه السحري فنامتْ نوماً هادئاً وعميقاً ، وقد فعل هذا لأنّ الروح آريل ستحضر أمامه وتحدّثه عما جرى للسفينة . وكما نعلم فإنّ الروح طيـــف وخيال شفّاف لاتظهر على ابنته ميرندا، لذلك لم يَرُقْ لبروسبيرو أنْ تراه ابنته يكلّم الهواء والفراغ .

وحين استفاقتْ ميرندا من النوم سرد لها والدُها قصّـــة السفينة ، وكيف أنّ الخوف والهلع سيطر على قلوب البحّارة . أما « فرديناند » ابن ملك نابولي فقد ألقى بنفسه في عباب اليمّ طالباً النجاة، حيث اعتقد والده أنّ الأمواج العاتية قد ابتلعته.

لكنه نجا بأعجوبة . وها هو الآن جالسٌ في مكانٍ ما على طرف الجزيرة تراوده الوساوس وتثقل عليه الهموم لفقد أبيه . أما شقيقه أنطونيو وملك نابولي فقد انطلقا مكتئبَين حزينَين يبحثان عن ضالّتهما فردينانَد فاقدَين كلَّ أمل بالعثور عليه. ونجا البحارة جميعاً وباعتقاد كلٍّ واحد منهم أنه هو الوحيد الذي نجا وسلم .

ويُطلُّ آريل ، الخادم المطيع ، ليطلب من سيده تحقيق الوعد الذي كان قد قطعه على نفسه بإعطائه الحرّية. وقال : « إني يا سيدي قد قدّمت لكم خدمات جلّى ثمينة دون تذمّر أو كدر».

فأجابه بروسبيرو : « انتبه يا آريل لما تقول ، فلقد أنقذتُ حياتَك وخلّصتك من عذاب السّعير والألم المستمر من الماكرة الجنيّة سيّدة السحرة سيكورس . ألا تذكر يا آريل أنك كنت محبوساً في شجرة فأتيت وخلّصتك » .

فأدرك آريل خطأه ، وتوسّل إليه بالصفح والغفران معاهداً أن يظلّ وفيّاً وأميناً في خدمته .

وهنا لبّى آريل طلب بروسبيرو بإحضـــار فرديناند من الجزيرة . وهناك وجده حزيناً ، يجلس على رابيـــة خضراء ، فناداه : « أيها الأمير الفتى اتبعني فسآخذك إلى ميرندا » ، وأخذ يغنّي أغنية جميلة تتحدّث عن موت والد الأمير . هذه الأنشودة أيقظتْ مشاعرَ الأمير وحرّكت فيه الاحساس بالحزن على فقد والده .

ولاحتْ نظرة لميرندا من بعيد فرأتْ انساناً يُشبه أباها ، ولكن بدون لحية ، فسألت والدها تأخذها الدهشة والذهول هل ما تراه هي الروح ؟ وميرندا لم تألفْ رؤية وجه إنسان من قبل غير وجه أبيها .

فأجاب الوالد : « كلا يا ابنتي إنه ليس بروح .. إنـه يأكل ويشرب وينـام . وهذا الشاب الواقف أمامك الآن كانـ في السفينة » .

وتلاقت النظرات .. وأطلق الحبُّ سهامه في القلبـين من خلال هذه النظرات . فتعلّقـا ببعضهما وهاما هيـاماً شديداً كلٌّ

منهما في الآخر دون أن تتحدّث الشفاه أو دون أن ينطق أحدهما بما يحمله للآخر من حبٍّ وهيام .

لاحظ بروسبيرو نظراتهما النهمة ، وشعر بداخل نفسه بما يدور من همسات الحب غير المعلن ، وأخفى هذا في نفسه ، ولكنه سُرَّ جداً أن يعشق كلٌّ منهما الآخر . فأراد اختبار فرديناند في حبّه لميرندا ، واعتزم أن يضعَ بعضَ العراقيل أمامه ، فخاطبه بعبوس متّهماً إياه بالمجيء إلى الجزيرة كجاسوس لانتزاع هذه الجزيرة منه وهو سيّدها ، وصرخ به : « سأُعلِّقك وأربط عنقك برجلَيك وأجعل مـاء البحر شرابك والجذور الهشّة طعامك » .

ولكنّ هذا لم يفتّ في عضد فرديناند ، فقد شحذ همّته وأجاب بثقة تامة بأنه سيقاوم ، واستلّ سيفه من غمده . لكنّ بروسبيرو بلمسة خفيفة جعله خائرَ القوّة مسلوبَ الحركة والنشاط .

أما ميرندا فقـد أخذتها الشفقة والرحمة بحبيبها وقالت :

« رحماك يا أبي . لا تَقْسُ عليه، إنه ثاني رجل أراه في حياتي » .

فانتهرها والدها وعنّفها بشدّة وقال : « أليس هنـــاك في الأرض من هو أجمل منه، إنه وكاليبان (الروح الجنّية الممسوخة قرداً) عندي سواء بسواء » .

قال هذا الكلام ليختبر به صدق حب ابنته لفرديناند .

أخرج بروسبيرو فرديناند من المغارة ، وطلب منه جمعَ الأخشاب الثقيلة ، وهذا العمل الشاق لم يألفه أولاد الملوك ، ولكنه بدأ يعمل . فأشفقتْ ميرندا على حبيبها وهمستْ له أنْ يستريحَ لتقومَ هي بدورها في جمع الأخشاب، وقالت : « إنّ والدي منهمكٌ في الدراسة ، ولا بدّ له من قضاء ثلاث ساعات فيها ، استرحْ قليلاً » .

لكنّ فرديناند أصرّ على نقل الأخشاب بتؤدة وتمهّل .

كان بروسبيرو يراقب ابنته وحبيبها سرّاً ليطمئنّ على حقيقة حبّهما لبعضهما ، وقد طابت له كلمات الاطراء والغزل المتبادلة ،

خاصة من فرديناند ، الذي وصف حبيبته بأنها أجمل امرأة في العالم. كان ذلك غاية ما يريده بروسبيرو ، لأنّ ابنته ستصبح ملكة نابولي .

أخبر فرديناند ميرندا أنه وليّ عهد نابولي ، وأنها ستصير ملكته .

فأجابته وهي تجهش بالبكاء : « إني أكلّمك بصراحة وطهر مقدّس ، أنا امرأتك إنْ شئت أنْ تقترنَ بي » .

وهنا تدخّل بروسبيرو ، وقطع عليهما الحديث ، ومنع فرديناند من شكره لها ، قائلاً : « إني أبارك لكما هذا الحب الطاهر ، الآن إن شئت خذها كهديّة مني إليك، ولتباركما السماء والأرض .. حقاً قد قسوتُ عليك كثيراً يا ولدي في اختباراتي ولكني .. »

وابتعد بروسبيرو عنهما قليلاً ، واستدعى آريل ، فأقبل مسرعاً نحوه ليخبره عن أخيه أنطونيو وملك نابولي . ثم قال :

« لقد دبّ في قلبَيهما الرعب والهلع وجعلتهما يجوعان كثيراً ثم أحضرتُ لهما وليمةً فاخرة التهماها بسرعة . لقد شعرتُ بالشفقة والرحمة نحوهما لما تحمّلاه من عذاب وآلام » .

سُرّ بروسبيرو لذلك وقال في نفسه : « إذا كانت الروح آريل تعرف معنى الرحمة والشفقة ، فكيف نحن بني البشر لا نعرف معنى الاستغفار ؟ » . ثم طلب منه إحضار أخيه أنطونيو مع ملك نابولي إليه .

ولم يكشف بروسبيرو حقيقةَ نفسه إلا لصديقه الوفي « غنزالو » الذي أحضر له الكتبَ والأطعمة، وقد دعاه « بمنقذ حياته » .

وأخيراً عندما عرف شقيقُه وملكُ نابولي من هو الذي يقف معهما ويعاملهما هذه المعاملة اللطيفة ، أجهشا بالبكاء نادمَين ندماً شديداً على فعلتهما الشنعاء مُطالبَين بالصفح والغفران . فصفح بروسبيرو عنهما ، وقد تعهّدا أن يُعيدا إليه دوقيّته .

وهنا أزاح بروسبيرو ستاراً داخل مغارته الصخرية ، فبدا

لهما فرديناند وهو يلاعب ميرندا الشطرنج . ففرحا وسُرّا باللقاء وجَمْعِ الشّمل ، بعد أن ظنّ كلٌّ منهما الآخر غريقاً . أما ميرندا فقد أدهشها ذلك ، وصاحت : « يا للعجب !.. ما أجمل وما أنبل هؤلاء الخلق ، وما أجمل هذا العالم الذي يحتوي أمثالهم » .

قصّ فرديناند على والده قصّته مع ميرندا وكيف أن المقادير قد جمعتهما دون ميعاد ، وكيف اقترن بها برضى والدها .

وأعلن بروسبيرو أنّ زمن المصائب قد ولّى بلا رجعة . ودعا إلى المستقبل ، مستقبل الحب والصفاء. فبكى الحاضرون فرحاً وحبوراً .

وفي الصباح أُطلِقَ آريل من أسره . وركب الجميع السفينة وعادوا إلى بلادهم .

طبع على مطابع دار الشمال الإخـراج : م .جمال الصوفي

عظماء التاريخ

